عمر فروخ



دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

اهداءات ٢٠٠٢
حرم أ.د/ محسن خليل
الإسكندرية

عمر فروخ



«الحضارة الإنسانية أخْذ وعطاء أو دَيْن ووفاء. وقيمة كل أمة هو قسطها الذي قامت به في إغناء هـــذه الحضارة».

دار لبنان للطباعة والنشر
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية

١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

مقـــدّمـــة

هذا الكتيّب كان في الأصل محاضرتين عنوانُ أولاهما: «الحضارةُ الإنسانية وقسط العرب فيها»، وقد أُلْقِيَتْ في المركز الثقافي الإسلامي في بيروت (يوم الاثنين في الثالث من جُمادى الأولى من سَنة ١٣٩٨ = ١٠ / ٤ / ١٩٧٨ م) . أما الثانية منهما، وكانتْ بعُنوان: «أثـر الإسلام في الحضارة الغَرْبية »، فقد أُلْقِيَتْ في مركز كَنِيدي في بيروت (في تاسعِ ذي الحِجّة من سَنة ١٣٩٩ = ٣٠ / ١٠ / ١٩٧٩ م) .

كانت المحاضرتان متقاربتَيْنِ في الموضوعِ جِدّاً، إلاّ أنّ الأولى عالجتِ الحضارةَ من الناحيةِ العَرَبية (من حيثُ تناولُ الموضوعاتِ في مصادرِ الثقافةِ المؤلّفة في اللغة العربية . أمّا الثانية فتناولتِ الآثار التي تركها الإسلامُ على الحضارة الإنسانية كلِّها.

إنّ الإسلام ليس ديناً فَحَسْبُ. إنّه دينٌ ودولةٌ ونظامٌ اجتماعيّ ومنهَجٌ أخلاقيّ. وهو ليس ديناً للنجاةِ في الآخرةِ فقطْ، ولكنّه طريقٌ إلى النجاح في الحياةِ الدنيا أيضاً. فقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «اعمَلْ لدُنياكَ كأنّك تعيشُ أبداً، واعمَلْ لآخِرَتِكَ كأنّك تموتُ غداً ».

والإسلام قد أقام في الدنيا ديناً وبنى حضارةً ونَشَر ثقافةً. ثمّ إنّ الإسلامَ استقرّ في جوانبِ الأرض. وحينما اتّفقَ أنْ تزولَ الدولةُ الإسلاميّة عن بُقعةٍ من الأرض ـ كما اتّفقَ في الأندَلُسِ وفي الهِند ـ فإنّ الحضارةَ والثقافةَ الإسلاميّتَيْنِ كانتا تبْقَيانِ أبعدَ أثراً في «الحياةِ الاجتماعية والفِكريةِ» مِنَ الحضارةِ والثقافة التي كانتْ لِعَددٍ من الشعوب في تلك البقعة . إنّ الدولةَ

الإسلامية قد زالتْ عن الأندلس، مَثَلاً. ولكنّ الذي يزور إسبانيةَ اليومَ يرى أثرَ الإسلام على البناء وعلى عاداتِ الناس وعلى اللُّغةِ التي يتكلّمها الناسُ. وإنّ جماعاتٍ كثيرةً من المَجوس في الهند يتكلّمون اللُّغةَ الأُرْديّة، وَهِيَ لُغةُ المسلمين . والنصارى في لُبنان يَفْتَخِرون بأنّهم هُمُ الذين حَمَوُا اللغةَ العربيةَ - صحّتْ هذه الدَعْوى أم لم تَصِحَّ - وبعثوا فيها عناصِرَ النهضةِ في العصرِ الحديث.

في هذا الكُتَيِّبِ لَمْحةٌ سريعة ولكنْ واضحةٌ وشاملةٌ في الوقتِ نفسِه.

بيروت في ثاني ذي الحجّة ١٤٠٠

١١ / ١٠ / ١٩٨٠ م

ع . ف .

فهـــرس المـــواد

١
الإســـلام والحضـــارة

يرى الفلاسفة أن حياة الإنسان متعدّدةُ الجوانب: إنّ له حياةً نباتية (يأكُلُ بهاويشربفيتغذّى بذلك جسمُه فينمو ثمّ يُدْرِكه الضَعْف فيَذْوي ويموت) ثمّ حياةً حَيَوانيةً (أو بهيميةً، على الأصحّ) . بهذه الحياة البهيمية (يُحِبُّ ويكرَهُ، ويرضى ويغضب، وينفعل ويهدأ أو يسعى الى ما ينفَعُه حيناً وإلى ما يضُرّه أحياناً .

أمّا الجانبُ الإنساني من حياة الإنسان (الجانبُ الذي يجعَلُ من ذلك الكائن إنساناً) فهُو النُّطْقُ (أي التفكيرُ)، فالكائنُ الحيّ لا يُسمّى إنساناً إلاّ إذا كان ناطقاً (أي مُفكراً ـ والنُطْق هنا ليس الكلامَ، فإنّ البَبّغاءَ تتكلّمُ وليستْ إنساناً) . من أجْلِ ذلك كُلّهِ سَمَّى القدماءُ (أي الفلاسفةُ اليونانيون) الإنسانَ حَيَواناً ناطقاً .

إنّ الإنسانَ بنُطْقِه (بتَفْكيره) يُقيمُ الحَضاراتِ المادّيّةَ ويُنشىءُ الثقافاتِ الروحيةَ. وتلك هي قيمتُه في التاريخِ وفي الحياة الإنسانية .

مـدارك خاطئة في تاريخ الحضارة

في تاريخ الحضارة مداركُ كثيرةٌ خاطئة أشهرها مدرك الشرق والغرب. إنّنا نحن نسمّي بلادنا بلاد الشرق، ثمّ نقول عنها أحياناً «غربيُّ آسيا». إنّ بلادنا شرق بالإضافة إلى بلاد اليونان وإلى إيطاليا وفرنسا وانكلترا، ولكنّها غرب بالإضافة إلى العراق وإيرانَ والهند واليابان. وكلّ نقطة على سطح هذه الكرة التي نعيش عليها هي شرق وغرب في وقت واحد. ففي اللحظة التي

تبدأ الشمس فيها بالغروب عن بلدة هونولولو في جزر هاواي من أواسط المحيط الهادي تبدأ الشمس، في تلك اللحظة نفسِها ـ وعلى تلك النقطة نفسها . بالشروق على أفُق مدينة بيروت . فهل هذه النقطة التي وصفناها شرق أو غرب ؟

ولقد علّمنا الله ذلك في القرآن الكريم فقال[١ : ١١٥، البقرة]: ﴿ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلّوا فَثَمَّ وجهُ الله﴾ وقال [٢ : ١٧٧]: ﴿ليس البرَّ أن تُوَلّوا وجوهَكم قِبَلَ المشرق والمغرب، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخر ﴾ (إلى آخر الآية) . ولقد علّمنا أيضاً أنّ الأرض كثيرة المشارق والمغارب، فجاء في القرآن الكريم [٣٧ : ٥ ، الصافّات] : ﴿ربُّ السمواتِ والأرض وما بينهما وربُّ المشارق ﴾ . . وكذلك قوله تعالى [٧٠ : ٤٠، المعارج]: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بربّ المشارق والمغارب، إنّا لَقادرون ﴾.

الحضارة تطوّر لا ابتـــداع

ومن المدارك الخاطئة في تاريخ الحضارة ما يزعُمه نفر من النّاس من أن فُلاناً أوّل من صنع كذا، وأنّ فلاناً آخَرَ أوَّلُ من اخترع الشيء الفلانيّ، وأنّ الأمّة الفلانية هي صانعة الزراعة أو التجارة أو ما يشبه ذلك . إنّ الحضارات والثقافات تطوّر وليست ابتداعاً يقع عليه فلان أو فلان . كلّ مفكّر يقتدي بمفكرٍ آخرَ سابقٍ على زمنه، وكلّ مخترع هو في الحقيقة شخص يزيدُ في آلةٍ شيئاً جديداً. فالطائرة النفّاثة تطوَّرت من الطائرة ذاتِ المراوح، وهذه تطوّرت بدورها من السيارة، والسيّارة من الناقلة ذات العَجَلات. والفضل في هذه كلّها يَرْجِع إلى ذلك الإنسان الذي خطر له في ساعة من ظلمات التاريخ، وفي بلاد ما بين النهرين، أن يقطع من جِذع شجرة شِبْهَ دولاب يدحرج عليه

أحمالاً احتاج إلى نقلها من مكان إلى آخر. إنّ كلّ حضارة في التاريخ تؤلّف موكباً طويلاً سارت فيه كلّ أمّة شوطاً من أشواط تاريخها الحضاري. وإنّ فضل كلّ أمّة إنما هو في القسط الذي تقوم به في بناء هذه الحضارة الإنسانية .

ميل الناس إلى الأعداد الكبيرة

ومنذ زمن بعيدٍ جدًّا أحبّ الناس أن يعملوا بالأعداد الكبيرة وبالوحَدات التامّة من الأعداد الكبيرة. ومعَ أننا نحتفل عادةً بالعيد الأول لاستقلال بلدٍ ما، فإن العيد الخمسين لهذا البلد نفسه يُبرق في النفس بريقاً أكثرَ ويوحي إلى الخَيال بقيمة أكبر . أما ما الفرق بين الاحتفال بالعيد التاسعِ والأربعين والاحتفال بالعيد الواحدِ والخمسين، فأنا لا أدري. غير أن الذي أدريه أن الناس يحبّون الاحتفال بالعيد الذي بينَهما ـ بالعيدِ الخمسين مثلاً.

والناس يحبّون الأعداد الكبيرة : إن المائةَ عندَهم أجملُ من العَشْرة، والألف في رأيهم أملأُ للفَمِ عند القول من المِائَةِ. غيرَ أننا كلَّنا نعلم أنّ الأعداد إذا كبرت كثيراً ضاع ما تدلّ عليه. يقول لنا أحدُ العلماء مثلاً : هذه الجُمجُمة المتحجرة تَرْجِعُ في التاريخ إلى خمسة ملايينَ عامٍ قبلَ الميلاد أو إلى ستّةِ ملايين عام . فالمِليون من الأعوام قد فَقَدَ هنا دَلالته الحسابية. أما عددُ السنين منذ الميلادِ الى اليوم فقد سقَط من الحساب ومن الحُسبان أيضاً مرةً واحدة . كذلك يسلُكُ الناسُ. ولا تفسيرَ لدينا لسُلُوكهم هذا.

وللسَنَةِ الهجرية في الإسلام معنى لا أحسَبُ أنّ للأمم الأخرى مثلَه أو مثلَ قِيمته. لم يكنْ عندَ العرب تقويمٌ، بل كانوا يُؤرِّخون ـ كغيرِهم من الأمم ـ بالأحداث الكبرى في حياتهم . ومن أشهرِ ما جاء عنهم تأريخهم من عام الفيل، كما كان الرومان مثلاً يقولون : في السَنة العاشرة ليوليوسَ قيصرَ،

أو كما قال الفُرْسُ: في العام العشرين لأنوشِروان.

الهجرة : مبدأ التقويم الإسلامي

ولما جاء عمر بن الخطاب إلى الخلافة فكّر في أن يضع للمسلمين تقويماً واضحاً. فجمع الصحابة وسألهم آراءهم في البدء بمثل هذا التقويم . اقترح نفر أن يكون البدء بمولد محمّد رسول الله. ولكن مولد رسول الله لم يكن معروفاً بدقّة بالغة: باليوم أو بالشهر. فاقترح آخرون أن يكون البدء بوفاة رسول الله، فإن وفاة محمد رسول الله ﷺ معروفة بالسنة والشهر واليوم والساعة. ولكن نفراً آخرين لم يوافقوا على ذلك، وكانت حجّتهم أن مفاتح الأعوام أعياد. والأعياد أفراح، فلا يجمل بالمسلمين أن يفتتحوا أعوامهم بذكرى وفاة صاحب الدعوة الإسلامية. ثمّ قرّ الرأي على أن يكونَ بدءُ التقويم الإسلامي بالهجرة، فتاريخ الهِجرة معروف بدِقّة، والهِجرة حادثٌ مُهِمٌّ كحادث البِعثة أو ظهور الإسلام. فبدأ المسلمون تقويمهم منذ الهِجرة التي كانت في العام سِتِّمائةٍ واثْنَيْنِ وعِشرينَ للميلاد - منذُ ألفٍ وأربعِمائةٍ سَنةٍ قمرية .

ثم تبدّتْ لِعُمَرَ بنِ الخطّابِ مُشكلةٌ.

إن الهجرة كانت في شهر ربيعٍ الأولِ من السَنة القمرية . والسَنة القمرية تبدأ أصلاً بشهر المُحَرَّمِ أو بالشهرِ المحرّم، أي قبلَ شهرين ونِصفِ شهرٍ تقريباً في الحُسبان الفلكي. حينَئذٍ قَرّ الرأيُ على أن يبدأ العدّ من أولِ المُحرّمِ لا من الثاني عَشَر من ربيعٍ الأول. ولم يستحسنِ المسلمون ما فعله الغربيّون من تحويلِ الشهور، إذ جعلوا سِنَتَهم تبدأ من كانونَ الثاني (يناير)، مَعَ أن بدءَ العامِ الشمسيّ من آذارَ (مارس) .

وكان للهجرة معنى لم يكن لغيرها في التاريخ.

عاش المسلمون الأولون ثلاثة عشر عاماً في مكّة قِلّةً دينية مضطَهدة لا وزنَ لها سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أوْ عسكرياً. ثم هاجروا - أي انتقلوا - من مكّةَ إلى المدينةِ فأصبحوا أُمّةً ذاتَ قيمةٍ في ميزانِ القُوى في شِبه جزيرة العرب. وبعدَ أن كانَ الإسلامُ في مكّةَ ديناً فحَسْبُ، أصبحَ في المدينة ديناً ومُجْتَمعاً ودَوْلةً معاً.

وفي السَنَوات الأولى من الهجرة لم يكنِ المسلمون قُوةً يُحْسَبُ لها حِسابٌ إلّا في المدينة وحدَها . فكان كُلُّ من دَخَلَ من أَهلِ مكّةَ في الإسلام بعدَ الهِجرة يعيشُ في مكّة في سِتْرٍ وضِيق وعذاب. من أجل ذلك أمرَ الرسول كُلَّ من كان يعتنق الإسلامَ من أهلِ مكّة - أو من غيرِ أهل مكّةَ - أن يُهــاجــرَ إلى المدينة حتى بعدَ أنْ أصبحَ المسلمون ذوي شأن في المدينة وفي خارج المدينة : لقد بَقِيتِ الهِجرة رمزاً يقوم به المسلمون اللاحقون كمالاً كما قام به المسلمون السابقون ضَرورة . ولكن لما فُتحت مكّةُ وعمّ الإسلام شبه جزيرة العرب بَطَلَ أثرُ هذا الرمزِ فأمرَ الرسولُ أن تبطُلَ هذه الهِجرةُ الرمزيةُ وقال: «لا هِجرةَ بعد الفتح ».

غير أن المعنى الحقيقيَّ للهِجرةِ لا يزال الى اليوم ماثلاً في الحياة في كل ميدانٍ من ميادينها.

إنّ الهِجرةَ الإسلاميةَ في حقيقتها ليستِ انتقالاً من مكانٍ الى مكان:
إن الانتقالَ من الضَعْف إلى القُوة هِجرة.
وإن الانتقال من الجهل إلى العِلم هِجرة.
وإن الانتقال من الفَقْر إلى الغِنى هجرة.

وإن الانتقال من التفرُّق إلى الوَحْدة هِجرة.
وإن الانتقال من التخَلُّف إلى التقدُّم هِجرة.
وإن الانتقال من العُبوديّة إلى الحُريّة هِجرة.

فأمامَ المسلمين اليومَ ميدانٌ فسيح لِيُهاجروا بينَ أطرافه. ولعلّهم فاعلون، إن شاء الله.

الهجرة وأثرهـا الحضـاري

وللهجرة الإسلامية آثارٌ في الحَضارةِ الإنسانية بارزةٌ. من هذه الجوانب ما يمكن تعليلُه ومنها ما يصعُب تعليله في الإطار التاريخي الذي اصطنعه الإنسانُ في حياته العاديّة. يسهُلُ علينا أن نُعلّلَ بالهجرة انتشارَ الإسلام في شِبه جزيرة العرب وتوحيدَ القبائِل العربية ورفعَ مستوى الإنسانِ العربيِّ في شِبه جزيرته التي كانتْ الى ذلك الحينِ مقطوعةً عن التاريخ الإنسانيّ ومعزولةً عن العالم المُتَحَضِّر. ولكنْ من العسيرِ علينا أن نُفسِّرَ خروجَ المسلمين من شِبه جزيرتهم بلا حَضارةٍ ماديةٍ ولا اختبارٍ في الحروب الدَوْلية ولا علومٍ من تلك التي عَرَفَها الصينيون والهُنودُ والفُرْس والمِصْريون والإغريق والرومان، ثم يُقيمونَ إلى جانبِ تلك الحَضاراتِ العريقةِ التي عَرَفَتْها تلك الأممُ حضارةً زاهرةً غطّتْ على كثيرٍ مِمّا كان قبلها. ويكاد المؤرخ العاقل يُصاب بالذُهول حينما يرى أنّ عمرو بنَ العاص وخالدَ بنَ الوليدِ وأبا عُبيدةَ عامرَ بـــنَ الجراحِ ويزيدَ بنَ أبي سُفيانَ والطِّفْلَ محمّدَ بنَ القاسم الثَقَفِيَّ والمَوْلى الشابَّ طارقَ بنَ زِيادٍ قدِ انتصروا على القادةِ العسكريين الكبارِ: رُسْتَمَ الفارسيِّ وهِرَقْلَ إمبراطورِ الرومِ ولُذَريقَ ملكِ القوطِ، وقد كان هؤلاء نجوماً في الحياة السِياسية والعَسكرية في أقوامهم. دَعْنا من القول: إنّ العربَ المسلمين لم يكونوا يَعُدّون يومَذاك أكثرَ من خمسةِ ملايينَ، بينما كان الهُنود والفُرس واليونانُ والرومان والقوط وأهل إفريقية عَشَراتِ الملايين كَيْلا أقولَ مِئاتُها.

بداوة العرب وبداوة غيرهم

وهناك ظاهرةٌ ثانية تدعو إلى التفكير. إن العرب في مُعظمهم كانوا بَدْواً. ولكنّهم لم يكونوا البدوَ وحدَهم في هذه الدنيا، ولا كانتْ هِجرتهم هي الهِجرة الوحيدةَ في التاريخ. قبلَهم كانتْ هِجرةُ البَدْو الهِكسوس الذين أتلفوا جانباً من الحضارة المِصرية القديمة. وقبلَهم أيضاً كانت هِجراتُ الجِرمان والهُون التي قضتْ على الحضارة الرومانية قضاءً مُبْرَماً. فكيف كانتْ هِجرةُ البَدْوِ من العرب عاملاً في نهوض حَضارةٍ زاهرةٍ في جميع العالم المعروف يومَذاك ثمّ ما زالتْ آثارُها تَتَبَدّى للعِيان في كُلِّ مكانٍ من العالم المتحضّر ؟

التاريخ وصف لتطوّر الحضارة

إنّ التاريخ، إذن، هو وصف الأدوار التي قامت الأمم في أثنائها برفع بناء الحضارات، وليس سَرْداً لأخبار الملوك أو لتفاصيل المعارك أو للأحداث المتشابهة التي تقع في قرية من القرى أو في مدينة من المدن. هنالك شعوب كثيرة تعيش على هذه الأرض لا ندرس تاريخها، لأنّ قِصَّة حياتها طعامٌ ونوم وَولادات ونِزاع، وليس لها قِسطٌ في بناء هذه الحضارة التي نَنْعَمُ بها اليوم. ثمّ إنّ الأمم العظمى لا تستمر في سَمْعِ التاريخ وبَصَره، بل تبرُزُ حينما تقوم بقسط معيّن في إغناء الثقافة الإنسانية أو نَشْرِ الحضارة الإنسانية. خذِ الأمة العربيةَ مثلاً واقرأ كتبَ التاريخ القديم فلا تكاد تجد لها في تلك الكتب ذِكْراً. وتقع أحياناً في تلك الكتب على ذكر لليمن لأنّ اليمن في عهودها القديمة قد عَرَفت حضارة لم تَعْرِفْها بلاد نجد والحجاز. ولكنِ انحدرْ في التاريخ إلى الأزمنة الوسيطة، بِدءاً بالقرن السابع للميلاد، تجد أنّ كتب التاريخ قدِ امتلأت بأحداث العرب لأنّ الإسلام - في تلك الحِقبة - قد حمّلَ العربَ رسالةً أخرجتِ العالمَ من الظلمات إلى النُّور ومن الاستعباد إلى الحرّية ومن

الجهل إلى العلم ومن الجاهليّة إلى الحضارة - ثم مَرَّ من تاريخ الفلسفة في العالم أربعةُ قرون كاملة سادها تفكيرُ رجلٍ مسلمٍ واحد، هو ابن رشد. لقد قضت أوروبّةُ قرنين تغترف فيهما من فلسفة ابن رشد، ثمّ قضت قرنين آخَرَيْنِ تحاول فيهما البابويّة أن تُخلّص أتباعَها من تأثير ابن رشد. هذه القرون الأربعة في التّاريخ الوسيط للفلسفة عَرَفَت حركةً فكريّة سُمّيتِ الرُشديّة. وليس في كتب الفلسفة كتاب على شيء من الجِدّ يَعرِض للفلسفة في العصور الوسطى ثمّ لا تجدُ هذه الحركةَ الرشدية في أبرز مكان فيه. .ومثلُ هذا يمكن أن يقالَ على نَفَرٍ من رجالنا أغْنَوْا الحضارة الإنسانيّة بثمار جهودهم : خُذْ مثلاً الخوارِزميَ والرّازِيَ وابنَ الهَيْثمِ وابنَ خَلْدونٍ وصلاحَ الدينِ فستجدُ كلَّ واحد منهم قد شَغَلَ في الكتب التي تعالج الوجوه المختلفة في الثقافة والحضارة صفحاتٍ كثيرةً وفصولاً.

مكانة العرب في الماضي والحاضر

بعدئذ انحدرْ أيضاً إلى العصر الحديث، فأين تجدُ اسماً من أسماء رجالنا المعاصرين في كتاب ؟ قد تجدُ اسم جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده في كتاب أُلِّف في نشاطهما. وقد نجد لهما ولغيرهما أيضاً ذِكْراً في كتب أجنبية تعالج قضايا عربية . أمّا الذي يدرس تاريخ إيطاليا وفرنسا وإنكلترا في العصر الحديث فلا يشعر أنّه محتاج إلى ذكر جمال الدين ومحمّد عبده وعبد الحميد ابن باديس. ولكن لو أراد مؤلّف إيطاليّ أو إنكليزي أو فرنسيّ أو أميركيّ أو روسيّ أن يُؤرِّخ اليومَ للثقافة والحضارة ما بين القرن الميلاديّ السابع والقرن الخامسَ عَشَرَ لَوجب عليه أن يفسَحَ صدراً واسعاً في كتابه للخوارزمي وللرّازي ولابن الهيثم ولابن سينا ولابن رشد ولصلاح الدين ولابن خلدون ولغيرهم أيضاً.

٢

اللغة مظهــر للإنسانية

اختلف الفلاسفةُ وعلماءُ النفسِ في الصِلة بينَ الفِكر واللُّغة:

أيستطيعُ الإنسانُ أن يُفكّرَ بلا لُغةٍ ؟

إنّ الفيلسوفَ العربيَّ ابنَ طفيل (ت ٥٨٥ هـ)، قال إنّ الإنسانَ يستطيعُ أنْ يُفكّرَ من غيرِ أن يكونَ له لُغةٌ مَحْكيّةٌ يُحاور بها أنْدادَه. وهنالك من يُخالفُ ابنَ طفيلٍ في ذلك . ولكنّنا نحنُ لا نَمْنَعُ أنْ يستطيعَ الإنسانُ أنْ يُفكِّرَ ولو لم يكُنْ له لُغةٌ، أو أن يفكّرَ أيضاً ولو كان يَمْلِكُ لُغةً ولكنْ لا يستطيعُ أنْ يَجِدَ أحداً يُخاطبه بألفاظِ تلك اللغة.

إنّ الخطأ في عَرْضِ هذه المُشكلة أنّ نَفَراً من الفلاسفة وعُلماءِ النفسِ (حاشا ابنِ طُفيلٍ) ذَهَبوا إلى أنّ اللغةَ هي التعبيرُ بالكلام الملفوظ باللِّسانِ والشَفَتَيْن . إنّ التفاهُمَ بينَ الناس يجري بالأصوات الواضحةِ (باللُّغةِ على ما نفهَمُ نحن) وبالأصوات غيرِ الواضحة (كما يفعَلُ البشرُ أحياناً وكما تفعَلُ البهائمُ دائماً). ثمّ قد تكونُ اللغةُ إشارةً باليد أو الرأسِ أو غَمْزاً بالعين أو تبدُّلاً في قَسَماتِ الوجه، أوْ نَفَساً يُبدِّلُ الإنسانُ فَتَراتِ تَرَدّدِه في الأنف أوِ في الفَمِ أو في الصدر.

ولكنّ جميعَ الدارسين مُتّفقونَ على أنّ الإنسانَ لا يُسَمّى إنساناً إلّا إذا كان مُفَكِّراً - ثمّ يَتَفَاضَلُ الناسُ في صِلَتِهِمْ بالإنسانيةِ على مِقْدارِ ما فيهم من رَجاحةِ التفكيرِ ودِقّتِهِ وعُمُقِه ووُضُوحِه.

العـــرب والعربيـــة

بعد هذه المقدمة التي طالت قليلاً أحبّ أن أنتقل إلى أمثلة من القسط العظيم الذي قام به العرب في بناء الحضارة الإنسانية . وأنا أستعمل هنا كلمة «عرب» على التوسّع : إنّ جابر بن حيّان وابن الهيثم وابنَ خَلْدونٍ كانوا عرباً، وأمّا الفارابي وابن سينا فتركيّان، والخوارزميّ والغزّالي فارسيّان، وابن البنّاء العدديّ بربريّ في الأغلب، وابن باجّة فرنجيّ على القطع. ولكنّهم كلّهم كتبوا باللغة العربية لأنّ اللغة العربية كانت لغة الثقافة في العصور الوسطى. إنّ موسى بن ميمون اليهودي كتب باللغة العربية، وحنين بن إسحاق الآراميّ كتب باللغة العربية، وثابت بن قرّة الصابئي الكلدانيّ كتب باللغة العربية، وكتـاب القانون في الطّب لابن سينا ـ وهو باللغة العربية ـ طبع في مدينة روما باللغة العربية وكان يُدرّس باللغة العربية في جامعة سالرنو الإيطالية .

فالنّعت «عربيّ» هنا مدركٌ لغويّ ثقافيّ، وليس مدركاً قوميّاً جغرافيّاً . أمّا إذا أَحْبَبْنا أن نحكم على كلّ حضارة وعلى كلّ ثقافةٍ بالغاية منهما، فمن الأصح أن نقول: الحضارةُ الإسلاميّة والثقافة الإسلاميّة. ومثلُ ذلك قَولُنا : الفلسفةُ اليونانيّة والهندسة اليونانيّة، فليس معنى ذلك أنهما يونانيّتان خالصتان، ولكنّ معناه أنهما كُتبتا باللغة اليونانيّة .

وإذا كانت الحضاراتُ والثقافات تطوّراً، فأينَ يَقِف العربُ في هذا الموكب الطويل الذي يمتدّ من فجر التّاريخ إلى يومنا هذا ؟

الكلمات العربية في اللغات الأجنبية

أوّل ما يبدو أمامنا من ذلك تأثيرُ اللغة العربية من حيث الألفاظ والتعابير والمدارك والخصائص الأدبية في اللغات الأجنبيّة.

لنبدأ بالكلمات. حينما يستعيرُ شعبٌ من شعبٍ أداةً أو فكرة أو مدركاً فلسفيّاً فإنّه يستعير مَعَ الأداة اسمَها أيضاً. نحن العرب لمّا أخذنا الأداة المسمّاة بالفرنجيّة تليفون أخذنا اسمها الأجنبيّ معها. ولقد سمينا هذه الآلة، فيما بعد، الهاتف. ولكنّ كلمة تلفون لا تزال غالبة. وبعد الحرب العالمية الأولى جاءت السيارة إلى بلادنا فكان كلّ إنسان يقول: «أتوموبيل»، ثمّ اختفت كلمة أوتوموبيل وسادت كلمة «السيّارة». وكذلك فعل الأوروبيّون لمّا أخذوا المدارك العلميّة والأدوات المختلفة من العرب فإنهم نقلوها بأسمائها العربية. أخذوا من العرب مثلاً قيادة السفن، وكان قائد العِمارة البحرية يسمّى «أمير الماء» فاختصر الأوروبيّون ذلك قليلاً فقال الفرنسيون: «أميرال»، وقال الانكليز: «أدميرال». ولم يَعرِفُوا الغُول أو الكُحول (جمع كحل) فقال الانكليز: «ألقوهول»، وقال الفرنسيّون: «القوول». ولم يَعْرِفُوا المِشْمِش وهو يسمّى في مصر البرقوق فأخذوه مَعَ اسمه فقال الانكليز القدماء: أبْرقوق (بباء فارسيّة) ثم خففوها فقالوا أبْرِقُت (بضمّ القاف) وقال الافرنسيّون أبْرِقو. وقالوا: كابْلْ وكانْدي وكاليبْرْ وكافّي أو كُوففي وغازَلْ وجِيرافْ وقُوطونْ وجارّ ولَيْلاك أو لِيلا وصُوفَا (من صُفّة) وسِيروب (من شراب) وتاريف (من تعريف أو تعرفة). أمّا كلمة سُكّر فلها مَسْلَك عجيب. السكّر أخذه العرب من الفرس واسمه الفارسيّ «شَكَرْ». ولكنّ الأوروبيّين لم يأخذوا السكّر من الفرس بل من العرب فكان اسمه في الفرنسية سُوكْرْ وفي الإنكليزية شوكَرْ وفي الألمانية تْسُوكّرْ، وفي الإسبانية آثوكّر وفي البرتغاليّة أسْسُوكر وفي الروسيّة ساخر وفي البولونية سوكيار وفي الدنمركية سوكّر وفي الهولندية سُويْكر... الخ. وفي اللغة الانكليزية وحدها أربعمائةُ كلمةٍ في الاستعمال الجاري من أصلٍ عربيّ بعضها لا يزال واضحَ الدلالة وبعضها قد تشوّه لفظه قليلاً أو كثيراً. ولا أريد أن أَشْغَلَكُم الآن بالألفاظ العربية التي دخلت اللغة

العلميّة من مثل كلمة جبر وكيمياء وسَمْت وذَنَب وفرقَدٍ . . . الخ. وحينما تنتهي لعبة الشطرنج يقول الرابح لخصمه بعدَ النُّقلة الأخيرة، إذا كان إنكليزياً «تشَكْمايْت » وإذا كان فرنسيّاً «آشكْ آمات »، وهي جملة عربية : الشاه مات.

شيءمن تاريخ تلك الكلمات

ولعَل هذه الإشاراتِ الخفيفةَ إلى عددٍ من الألفاظِ العربية التي دَخَلتْ في نسيجِ اللغاتِ الأجنبيّة قد شوّقتِ القارىءَ إلى أن يَعْرِفَ شيئاً من التفاصيل المتعلّقة بانتقال هذه الكلماتِ العربية إلى تلك اللغاتِ الأجنبية . ففيما يلي شيءٌ من ذلك:

الكلمة الأولى: كلمة «سكّر»، وهي كلمةٌ فارسيّة في الأصل: شكر (بفتح ففتح، والكاف بَدْوية). ومعَ أن هذه الكلمة قدِ انتقلتْ إلى اللغات الأوروبية في أثناء الحروب الصليبية، ومن اللغة العَربية، لا من اللغة الفارسية، فإنّ من المُسْتَغْرَبِ أن يكون لَفْظُها في الإنكليزية بالشين: Sugar . والذي يبدو من قاموس أوكسفورد الكبير أن كلمة سكّر انتقلت إلى اللغة الإنلكيزية في أواخِرِ القرن الثالثَ عَشَرَ، وكانت تلفَظُ سوكار (١٠: ١١٣ ، ١١٤). ويستغربُ قاموسُ أوكسفورد الكبيرُ أيضاً انقلابَ السين هنا شيناً ثمّ يقول: ولعلّ ذلك جاء من قبل مدّ حرفِ العلّةِ كما تقولُ كلمة Sure (بالإنكليزية) بالشين لا بالسين.

والسكّر في الدنماركيّة سكّر، وفي الألمانية تسوكّر، وفي الهولندية سويكر، وفي الإسبانية آثوكر، وفي الفرنسية سوكر (بسكون الكاف هنا) . ولو أننا تطوّفنا بين جميع اللغات : الروسية والبولونية والبرتغالية والنروجية وغيرها لَوَجَدْنا هذا اللفظَ فيها كُلِّها، مَعَ اعوِجاجِه قليلاً أو كثيراً على

ألسِنَةِ أهلِ اللغات المختلفة.

والقَنْد هو السكّر العاديّ المستخرج من قصب السكّر خاصّة. والكلمةُ أيضاً معرّبة من اللغة الفارسية «كند» (بالكاف). ووُجِدَتْ هذه الكلمةُ في الإيطالية في عام ١٣١٠ للميلاد: زوكّر وكاندي. وجاءتْ من العربية (قاموس أوكسفورد الكبير ٢ : ٦٦) . ومرّت الكَلِمَةُ إلى اللغة الإنكليزية عام ١٤٢٠م . لتدُلَّ فيما بعدُ على نوعٍ من الحلوى الراقية: Candy .

غير أن الأمر هنا لا يدورُ على كَلِمَتينِ انتقَلتا من لُغةٍ إلى لغة. ان هذا الانتقال يدُلُّ على وجهٍ من وجوهِ الحضارة . لا شكَّ في أن الغَرْبَ لم يَعْرِفِ السكّرَ ولا القَنْدَ قبل الحروبِ الصليبية. فانتقالُ السكرِ وغيرِ السكر من المشرقِ الإسلامي إلى أوروبة المسيحيةِ التي كانت يومَذاك، على الأقلِ، في نزاعٍ شديدٍ مَعَ الإسلام وعداوةٍ بالِغَةٍ له يدُلّنا على هذا كله ذلك التبادلُ الحضاريُّ المُستمرّ، والذي لا يحتاجُ إلى «جوازِ سَفَرٍ» ليمُرَّ من بلدٍ إلى بلدٍ، ولا من دَوْلةٍ إلى دولة، ولو كانت تانك الدولتانِ في حالةِ حرب. فانتقالُ الحضاراتِ لا يَعْرفُ الحدودَ الصِناعية ولا القُيودَ السياسيةَ ولا تطبّقُ عليه القوانينُ الجُمركيّة.

و« صوفا» هي أيضاً من العربية (الصُفّة) . وأوّلُ ما وَرَدَ علينا لفظ الصفّة من مسجد رسولِ الله في المدينة : إنها مقعَدٌ مُستطيلٌ مرتفعٌ يَجْلِسُ عليه عددٌ من الأشخاص.

ثم هنالك «ديفان» (وهي ديوان بالعربية ـ ثم هي من أصل فارسي) . والأوروبيون قد تناولوا هذه الكلمةَ أيضاً من العرب. والعرب يُطْلقون هذه الكلمةَ على عدد من الأشياء: على المقعدِ المستطيل المرتفع، وعلى الدائرةِ الحكومية، وعلى الكتاب يجمَعُ الرجُلُ فيه أشعارَه. وبهذهِ المعاني الثلاثةِ

نَجِدُ هذهِ الكلمةَ في اللُّغاتِ الأجنبية. لقد تركتْ هذه الكلمةُ أثَرها في الحضارة الأوروبية بارزاً. هذه الكلمةُ «ديوانٌ» قد مرّتْ من اللُّغة العَرَبية إلى الفَرَنسيــة والإنكليزية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والألمانية والهولندية والنَرُوجية وإلى لُغةِ أهالي جزيرةِ أيسْلندة عندَ منقطَعِ العالم المأهول. ونحنُ العربَ اليومَ معَ الأسف نقولُ: صوفا.

واستعمل غوته شاعرُ الألمان هذه الكلمةَ «ديوان» لمجموعٍ من أشعارِه سيأتي الكلامُ عليه في أثناء هذا الحديث.

ولكلمة «قصر» أمرٌ عجيب. الكلمةُ في الأصل لاتينية: «كاسترا» وصلتْ إلينا في الجاهليّة فَلَفَظَها العربُ بالصاد الفَخْمة، كما كانَ الروم والرومان يَلْفِظونها في ذلك الحين.

ثمّ اتّصل العربُ بالأوروبيينَ في العصور الوُسْطى، وكانَ لفظُ هذه الكلمةِ قد لاَنَ فانقلبتِ الصادُ القاسيةُ شيناً ضعيفةً فَسَمى العربُ حصناً قُربَ مدينة حَماةَ «شَيْزر». هذا الأثرُ الحضاري المتطوّرُ الذي فَعَلَ فعلَه في بلادِ العرب من المشرق قد فعل هذا الفعلَ نفسَه في الغَرْب من بلاد الإفرنْج. ففي انكلترة مُدُنٌ كانتْ في الأصــلِ حُصوناً، فالمُدُنُ التي بُنِيَتْ في زمنٍ متقدّمٍ ثبتتِ القافُ في اسْمِها لانكاستــر ودونكاستر. ويبدو أن التي تأخَّرَ بِناؤ ها قليلاً انقلبتْ قافُها سِيناً، نحو: غلوسستر، لايسستر، ورسستر. أما التي تأخّر بناؤ ها أكثرَ من ذلك فانقلبتْ سينُها شيناً، نحو: شستر، دورشستر، مانشستر، روشستر.

لا أقْصِدُ من هذا المقطعِ أن يكونَ دَرْساً في فِقهِ اللُّغةِ، ولكن أقْصِدُ منه أن يكونَ دليلاً على أنّ الجماعاتِ مهما تختلفْ في أماكنها مِنَ الأرض ومواقِعها من الأجناس والألوان ومواقِفِها من السِياسة والاقتصاد، فإنها تتّفقُ في

الطاعةِ لقوانينِ الحضارة.

حـــركة الحضارة ديـــن ووفـــاء

لقد طال هذا الاستطرادُ حتى كادَ الكلامُ ينقطع دونَ تَمامِ الحديثِ عن كلمةِ «قصر» في اللُّغة العربية. لما انتقلَ العربُ إلى الأندلس بَنَوْا قُصوراً كثيرةً كان منها قَصْرُ إشبيليةَ المعروفُ باسم «القَصْر»، وهُو تُحفةٌ فنّية نادرة. وَضَنَّ الإسبانُ باسْمِ هذا القَصْرِ أن يُبدّلوه فَنَطَقوا باسْمِهِ في لُغَتِهِـــم «الكاثار» (ونحن نقولُ «الكازار») . وأحبَّ العالمُ كُلّهُ هذا الاسمَ فأطلقوه على عددٍ من الملاهي الراقيةِ والفنادقِ الراقية وغيرها. ومن الغريبِ المُؤسفِ أنّ العربَ أنفسَهم سَمَّوْا ملاهِيَ وفنادقَ باللفظ الفِرنْجيّ «الكازار» لا باللفظ العربيّ «القصر». ولكن هذا أيضاً يدُلّ على المَجْرى الحَضاري في تاريخ الإنسانية: من الرومانِ إلى العربِ إلى أحفادِ الرومانِ فإلى العربِ من جديدٍ.

ويقول نفر من الناس إنّ عدداً من هذه الكلمات لم يكن في الأصل عربياً ككلمة سكّر فإن أصلها فارسيّ، وكلمة فِرْدَوْسٍ فإنها يونانيّة، وكلمة قَصْر فإنها من اللاتينية. ولكنّ الأوروبيّين أخذوا هذه الكلمات من العرب لمّا قالوا سُوكْرْ ـ بارادي أو بارادايْس أو قالوا أَلْكازار. ثمّ إن هذا ما يزال قائماً دليلاً واضحاً على أن الحضارة الإنسانيّة قائمة على هـذا الدَّيْن والـوفاء: يأخُذُ بعضُ الأمم من بعضٍ ويُعطي بعضُها بعضاً. وفي قانون الحضارة يجب أن يكون العطاء أكثرَ من الأخذ حتى يستمرّ ارتقاء الحضارة .

٣

الأدب تعبيــر أنيــق

حينما يُعَبِّرُ المُفكِّرُ العالمُ أو الفيلسوفُ عن رأيه، فإنّما يُعَبِّرُ عن رأيهِ ذلك بِحَسْبِ قواعدَ ثابتةٍ أو مَنْطِقٍ مُتّسق. أمّا الأديبُ (والشاعرُ مِنَ الأدباءِ، على الأخصّ) فإنّه يُعِيرُ جَمَالَ التعبيرِ اهتماماً أكبرَ مِنَ اهتمامِه بدِقّةِ التعبير. إنّ الشاعر خاصّةً يُحِبُّ الصورةَ الجميلةَ أكثرَ مِنْ حُبّهِ للحقيقةِ الثابتة. ثمّ هُوَ يُحِبُّ - بخِلافِ ما يُحِبُّ العالِمُ - أن يكونَ تعبيرُه عنِ الحقيقةِ الواحدةِ أوِ الشعورِ الواحدِ أوِ المنظرِ الواحدِ أو الـــرَّغْبة الواحدةِ في صُوَرٍ مختلفةٍ.

إنّ الأدبَ حِلْيَةٌ من الحُلى: إنّه زِينةٌ للحياةِ الإنسانية.

أثــر الشعــر العــربـي

وما دُمنا في حديث اللغة فلنْعطفْ قليلاً على الأدب فإنّه وثيق الصّلة باللغة. كان لليونان وللرّومان شعر له أربعة أوزان أشهرها السُّداسي، وهو يتألّف من مزدوجات كلّ مزدوج شطران بقافية واحدة، ولعلّه أشبه بما يسمّى عند العرب ببحر الرَّجَز.

كما نـرى في شعر الرَّجَز العربيّ :

يا لَلشّبابِ المَرِحِ التصابـي
روائحُ الجنّةِ فِي الشبابِ.
إن الفَسادَ بعدَهُ الصلاحُ،
يا رُبَّ جِــــدٍّ جَرّه المُــــزاحُ.
أتتْ مُلوكٌ ومضـــتْ مـــلوكُ
غرّتْهُمُ الآمالُ والشُكــوكُ.

ولا شكّ في أنّه وزن متواتر يدخل منه على النفس شيء من الملل، وخصوصاً إذا لم يكنِ الشعر من طبقة رفيعة.

والشعر الأوروبيُّ الأولُ كان قاصراً جدًّا حتى اتّصل الأُوروبيون بالعرب في الأندلس ثم في الشام في أثناءِ الحروب الصليبية. ورأى الأوروبيون عندَ العربِ أوْزاناً كثيرةً ثم رَأَوُا الموّشحةَ أيضاً وهي مقطوعةٌ من الشِعر تمتزجُ فيها أوزانٌ متعددةٌ وتتخالفُ القوافي المتنوعة فيها، فأحبّوا هذا التوشيحَ وأخذوه عنِ العربِ ونَظَموا عليه «الصُوَيْت» أوِ الصَوْتَ القصير . والصوتُ في اللُّغةِ العربية مقطوعة قصيرةٌ تُغنّى، واسْمُها في الفِرنْجيّة «سُونَتْ».

وكان مؤرّخو الآداب الأوروبية قد حاروا زماناً طويلًا في مصدرِ هذا النوعِ من الشعر حتى نشأتِ النظريةُ العربية وأجمَعَ كِبارُ مؤرّخي الأدب والدارسين في الفرنسية والألمـانيـة والإيطالية على أن أَدَبَهُمُ الجديدَ الذي بَرَزَ في كُلّ مكانٍ زَهْرَةً غريبةً في رِياضِ الأدب إنما جاء من تَقْليدِ الشعرِ العربيّ. ويبدو أن الأدبَ الإنكليزي لم يتأثرْ مُباشرةً بالشِعر العربي، بل بالشِعر الإيطالي الذي كان قد تأثّرَ بالشعر العربيّ.

احتكَّ الافرنج بالعرب في الأندلس، ثمّ في المشرق في أثناء الحروب الصليبية، فَعَرفُوا الموشَّح والزَّجَل فنقلوا أوزانهما إلى آدابهم. فالشعراء التروبادور في جَنوبيّ فرنسا نقلوا من الموشّحات الأندلسية ومن الأزجال المشرقية والمغربية. وبذلك خرج الشعر الأوروبيّ عن وَتيرته الأولى وأصبح شاعرهم ينظم مُقَطّعات مختلفة الأبحر متعدّدة القوافي سُمّي بعضها سونّت أو سونّه. ودخل كثير من أغراض الشعر العربيّ ومعانيه وألفاظه في الشعر الأجنبي. وعندنا اليوم كتب بُرمَّتها تعالج هذا الموضوع في الأدب الفرنسي والأدب الإيطاليّ والأدب الألمانيّ. ولا حاجة بنا إلى الإشارة إلى الأدبين الإسبانيّ

والبرتغالي فإنّ أثرَ اللغة العربية والأدب العربيّ فيهما واسع جدّاً. والذين درسوا هذا الموضوع من المستشرقين قدّموا لنا أمثلةً من الشعر العربي مُقارَنةً بأمثالها من الطلائع الأولى في الشعر الأوروبيّ. أشهر هذه الأمثلة الموشّحة المشهورة :

ما لذّ لي شَربُ راحِ
على بِساط الاقاحِ .....

إنّ الشاعر التروبادوري التزم عددَ أشطر الموشّحة العربية وترتيب أشطرها المختلفة وترتيب قوافيها، وربما عطف على المعنى بعد المعنى من معانيها. وقد قلّدوا الزجل الذي سمعه بعض شعرائهم في القدس في أثناء الحروب الصليبية:

شفتها على السطوحْ   شعرها الأسود بيلوح
بدّي سافر بدّي روح   روح مع السلامه

بين شعرائنا وشعرائهم

ونعطف قليلاً على الشعر. قال أبو تمّام:

نقّلْ فُؤَادَكَ حيثُ شِئتَ من الهوى،
ما الحُبُّ إلاّ للحبيبِ الأوّلِ.
كم منزلٍ في الأرض يألَفُهُ الفتى؟
وحنينُه أبداً لأوّلِ منزل !

ثمّ جاء بعده الشاعر الفرنسي لامارتين، بعده بعشرة قرون وربع قرن، فقال:

المرء منّا أبداً راجِعٌ   إلى هَوًى من حُبّهِ الأوّل

L'homme revient toujours

A ses premières amours.

ويقول أبو العلاء المعرّي :

والله، إذ خَـلَقَ الـمـعـادنَ، عـالـمٌ
أنّ الـحِـدادَ الـبِـيـضَ مـنـهـا تُـصْـنَـعُ

ثمّ جاء هذا المعنى بظِلاله عند الشاعر الألماني فون أرنْتْ لمّا قال:

والـذي أنبت الـحـديـد من الأر ض أبى أن يكون في الأرض عبد

Der Gott der Eisen wachsen liess

Der wollte keine Knechte.

ولم أستطع أنا أن أدخل لفظ الجلالة «الله» في البيت الألماني الذي صغته من ألفاظ عربية.

أنا لا أقول إنّ لامرتين الفرنسيّ قرأ شعرَ أبي تمّام، ولا أقول إن فون أرنْتْ الألماني درس شعر المعرّي. ولكني أقول إنّ العقول والألسن تتلاقى وإنّ الحضارات تتجاور وتتحاور، ولكنّ الفضل للمتقدّم على كلّ حال. والمتقدم هو الذي يعطي المتأخّر، ونحن أعطينا ولا فضل لنا في العطاء لأننا كنّا قد أخذنا أيضاً. غير أن الرَّغْبة في العطاء أعظم قيمة من العطاء نفسه، فإنّ الغنيّ لا يعطي إذا لم يكن عنده رَغبة في العطاء.

غوتــه وفهمه للإسلام

ومن أجمل ما أعطيناه في الشعر ـ وهو ممّا أعطيناه نحن بلا ريب ـ قول غوته سيّد شعراء ألمانيا، حينما قرأ على أستاذه روكّرْتْ شيئاً من الآداب الإسلاميّة:

من الحُمْــق أن يلتفتَ كلُّ إنسانٍ فيما يخصّه
إلى مَدْحِ آراءِ نفســهِ.
إذا كانَ الإسلامُ هو الخضوعَ لله،
فكلنّا نحيا في الإسلام ونموت:

Närrisch, dass jeder in seinem Fall

Seine eigne Meinung preisst.

Wenn Islam Gott Ergeben heisst,

In Islam leben und sterben wir alle!

وبعدَ أن تعلّم غوته شاعرُ الألمان أشياءَ من الثقافة الإسلامية ومن أدب اللُّغاتِ الإسلامية نَظَم مجموعاً صغيراً من المقطعّات الشِعرية وجَمَعها في كُتيِّبٍ سمّاه «الديوانَ الشرقيَّ الغربيَّ» واستعملَ كَلِمةَ «ديوان» بَلَفْظِها العربيّ بمَعْنى مجموعٍ من الأشعار.

وقد قال في صدرِ هذا الديوانِ : هذا كتابٌ آخِرُهُ أَوَّلُهُ: يَقْصِدُ إذا أنتَ بدأت بأوّلِهِ من اليَسارِ (كما تُقْرأُ الكُتُبُ في اللغاب الأوروبية) وَوَصَلْتَ إلى آخِرِه في الجانبِ الأيمنِ فكأنّك وَصَلْتَ إلى أوّلِهِ (كما تُقْرأُ الكُتُبُ في اللُّغةِ العربية).

في هذا المجموعِ من الشِعر ـ أوْ في هذا الديوانِ، كما يقولُ غوته نفسُه ـ بيتانِ لم يُتحْ لي نَقْلُهما إلى العربية برغْمِ ما حاولتُ طويلاً. ومنذ دقائق[1] اسْتقاما لي في الوَزْنِ، ولكنْ في ثلاثةِ أبياتٍ. يقولُ غوته:

قـل لمن ينظر في أحـوالـه ... ويرى في نفسه خير النعوت :
إن يك الإسلام تسليم الرضا ... لإله العرش والناس قنوت.
كلّنا، يا صاح شيء واحد : ... نحن في الإسلام نحيا ونموت.

(١) ٣٠/١٠/١٩٧٩ (٩:٤٥ صباحاً).

زرقــاء اليمــامــة وشكسبيــر

وفي مسرحية «مكبث» لشكسبير عقدة بارعة في قول الساحرة لمكبث إنّه لن ينهزم حتى تسير غابة بيرنام نحو دونسيناين . ويطمئن مكبث إلى هذا القول. وفي أحد الأيام يدخل حارس على مكبث ويخبره بأنّه شاهد غابة بيرنام تتحرّك مسرعة في اتجاه دونسيناين . وتحلّ العقدة بأنّ جنودَ خصومه أرادوا خديعته فحملوا أغصان أشجارٍ وساروا بها.

هذه الخدعة وردت في الرّوايات الجاهلية عن زرقاء اليمامة وكانت امرأة صحيحة البصر تبصر ـ فيما زعموا ـ من مسيرة ثلاثة أيام . وقد أنذرت قومها ذات يومٍ بأنّ غابة تسير في اتجاههم فلم يصدّقوها. وبعد ثلاثة أيام فاجأهم أعداؤهم بجيشٍ كثيف وانتصروا عليهم.

بخيل موليير وبخيل الجاحــظ

وللرّوائيّ الفرنسيّ موليير عقدة مشهورة في مسرحيّة «البخيل»، هي أنّ ابن هارباغون كان يحصي تَرِكة أبيه فوصل إلى غرفة الطعام فوجد فيها قطعة جبن مقروضةً من أطرافها. فوقف مستغرباً، فقيل له: ماذا تستغرب من ذلك؟قال : كان أبي مسرفاً يَقْرِض الجُبنة قرضاً. فسئل: وما كان عليه أن يفعل ؟ فأجاب: كان يجب أن يمسح على قطعة الجبن بقطعة من الخبز.

إنّ لهذه العقدة نفسِها روايةً أجملَ في كتاب «البخلاء» للجاحظ الذي عاش قبل موليير بثمانية قرون وبضعة قرن:

كان ابن البخيل يحصي ما تركه له أبوه فوقف عند قطعة من الجبن يتأمّل في خطٍّ عميق فيها. فقيل له: ما وجه الاستغراب؟ قال: كان أبي مسرفاً يمسح الجبن بخبزته. فقيل له: وما كان عليه أن يفعل؟ فقال لهم: كان يجب أن يقفَ بعيداً ثمّ يشيرَ بلُقمة الخبز إلى قطعةِ الجُبن.

تلاقي الحضارات والثقافات

لا أريد أن أدّعيَ أن شكسبير الانكليزي أخذ قِصّة زرقاء اليمامة من العرب، ولا أن موليير الفرنسي قد أغار على حكاية ابن البخيل وقطعة الجبن في كتاب البخلاء للجاحظ العبّاسي. ولكني أريد أن أقول إنّ العقول والألسن تتلاقى في ميادين الحضارة والثقافة فإذا لم يكن الإنكليزي والفرنسي قد أخذا من العربية والعربي، فإنّ للعربيّين فضلَ السبق في ذلك. ولا أُحيل أن يكون الجاحظ وزرقاء اليمامة قد عَرَفا ما قالاه من الفُرسِ أو من الروم مثلاً، ولكنّهما يكونان قدِ استدانا شيئاً من رجلٍ قديم ثم وَفيا أحفادَ ذلك الرجل القديم ما كانا قدِ استداناهُ من قبلُ.

٤
العلم يبني الحضـــارة

إنّ الحضارةَ أوِ الحياةَ الإنسانية تُبْنَى على العلم وحدَه: على العلمِ الرياضيّ والعلم الطبيعيّ. إنّ لإعدادِ الطعامِ ولعَمَلِ الثياب ولبناءِ الدورِ والقُصورِ والمصانعِ والمعامل وللزِراعة والصِناعة والتجارة وللسباحةِ والطَيَرانِ. وللسِلْم والحرب وللدولةِ والمدرسة أحكاماً من العِلم الرياضيّ والطبيعيّ. ولا يُمْكِنُ لجميعِ هذه المظاهرِ من الحياةِ الإنسانيةِ أن تبرُزَ واضحةً ناجحةً نافعةً إلّا بتلك الأحكامِ من العلم. أمّا إذا اتّفقَ أن قامَ إنسانٌ بعملٍ من هذه الأعمال ـ ولم يُطَبّقْ فيها شيئاً من هذه الأحكامِ ـ ثمّ نَجَحَ في مَشاريعه، فليسَ معنى ذلك أن نَجاحَه لم يَقُمْ على قواعدَ عِلميةٍ. ولكنّ ذلك يَعْني أنّ الأحكامَ العِلمية كانتْ تأخُذُ مَجْراها في أعمالِه كُلِّها، ولكنّه هُوكان غافلاً عَنْ كُلِّ ذلك.

الأرقـــام

والأمانة في القرض الحسن فضيلة في الآخذ وفي المُعطي، ولن يضيعَ لأحد منهما في ذلك أجر. لِنَرْجِعْ قليلاً إلى العلم.

إنّ جميع الأمم القديمة لم يكن عندها رموز مستقلّة للأرقام تدوّن بها الأعداد. وكان تدوين الأعداد عند جميع الأمم معقداً كثيرَ الشذوذ. كان الحاسب يجمع أ إلى ط إلى ي إلى ك إلى ن فيكون مجموعها ق أي مائة. ثم يضرب جـ في د في هـ فيكون الحاصل س. ـ كان يجمع خمسة أعداد فيرمز إليها بعدد واحد، ويضرب ثلاثة أعداد بعضها في بعض فيحصل من ذلك

الضرب الطويل حرف واحد هو س (أي ستون).

دعونا نتناولْ في الفسحة التي بَقِيَتْ لنا من الوقت عدداً من مظاهرِ الحَضارة العالمية والثقافة الإنسانية من تلك التي لا شَكَّ في أنها تَرْجِعُ إلى الإسلامْ ولا شكَّ أيضاً في أنني لا أستطيعُ، فيما بَيْنَ يَدَيّ من دقائقِ الزمنِ، أن أتناولَ كُلَّ تلك المظاهر ـ لِنبدأْ بالأرقامِ.

إن العالَمَ القديمَ لم يَعْرِفْ تدوينَ الأعداد لأنّه لم يَعْرِفِ الأرقام: أيْ إنهلم يكنْ لديه رموزٌ خاصةٌ يمكنُ أن تتألفَ منها الأعدادُ. من أجل ذلك ـ قصّر اليونان ـ كما قصّر غيرُهُمْ مِنَ القُدَماء ـ في الحِساب والجَبْر تقصيراً مَعِيباً، بينَما كانتِ الهندسةُ من نِتاجِ العبقريةِ اليونانية.

ولقد كان عندَ الهُنودِ رموزٌ للأرقام مختلفةٌ من تلك التي كانتْ عندَهم للأحرُفِ، ولكنّهم لم يكونوا يستخدمونها في وُجوهِها الصحيحة: لقد كانتْ تلك الرموزُ عندَهم من وسائِل الزُخْرُفِ. وفي تاريخِ الثقافةِ الإسلامية أن الخليفةَ المأمونَ أمرَ مُحمّدَ بنَ موسى الخوارزميَّ أن يُوجِدَ للتّجّارِ طريقةً تُسهِّلُ عليهم تَدْوينَ مُعامَلاتِهِمُ التجاريةِ. وَعَرَفَ الخوارزميُّ أن عندَ الهُنودِ رموزاً للأرقام فاستعارَها ثم استخدَمها لتدوينِ الأعداد وفي حلِّ المَسائِل وفي بِناءِ المُعادلات. ولا تزالُ المُعادلةُ من الدَرَجَةِ الثانية تُعْرَفُ عندَنا وعندَ الأغيار باسْمِ «معادلَةِ الخوارزميّ». وكما نُسمّي نحنُ الأرقام التي نعمَلُ بها «الأرقامَ الهِندية»، لأننا استَعَرْناها من الهُنودِ، فإنَّ الأوروبيين قد سَمَّوْا هذه الأرقامَ «الأرْقامَ العربيةَ» لأنّهُمْ أخذوها منا وتعلّموا منا طريقةَ استِخْدامِها. ومن الطريفِ أن نَعْلَمَ أنّ الهنود أَنْفُسَهُمْ قدِ استخدموا الأرقام في أعمالِهِمُ الحسابيةِ بعدَ أن تعلّموا طريقةَ استخدامِها من المسلمين.

علـم الجبـر

وما دُمنا في حديث الخوارزمي فيحسُنُ أن نذكر فضله على علم الجبر. كان الجبر منذ أيام المِصريين القدماء فنّا يَعْرِفه البارعون في الحُسبان والأذكياء بالسليقة. وكذلك كان عند اليونان. أخذ الخوارزمي هذا الفن من اليونان ومن الهنود أيضاً ثم وضع له المُصطلحاتِ والقواعدَ وجعله عِلماً قائماً بنفسه مستقلاً عن الحساب والهندسة وجعله قابلاً للتعليم. ثم سماه علم الجبر والمقابلة . وأخذ الأوروبيون هذا العلم عن الخوارزمي فتركوا اسمه «ألجبر، ألجبرا » الخ ، كما كان الخوارزمي قد سماه. ثم سَمَّـوُا الحسبان كله «ألغورزموس » اعترافاً بفضل الخوارزمي . ولا يُنْكِرُ أحدٌ علينا قولَنا: إنّ الجبرَ عِلمٌ عربيّ، فإنّ اسْمَهُ، على الأقل، في اللُّغاتِ الأَجنبية Algèbre Algebra دَالٌّ عليه. ولكنّ الخوارزميَّ لم يخلَعِ اسمَ الجبرِ على هذا العلمِ النافعِ فَحَسْبُ، ولكنّ الخوارزميَّ وَضَعَ قواعدَ الجبرِ وجعَلَ تلك القواعدَ قابلةً للتعليم.

الفلك علم إسلامـي

ــ وكذلك لا يبعُدُ الفلكُ عن أنْ يكونَ عِلماً عربيًّا ـ أقْصِدُ إسْلاميّاً ـ أكثرَ مما كانتِ الكيمياءُ . إن القدماءَ من المِصريين والبابليين والهُنود واليونان وغيرهــم قد عَرَفوا الفَلَكَ معرفةً جيدةً، ولكن عِلْمَهم بالفلك ظلّ غارقاً في الخُرافاتِ، فالنُجوم عند اليونانِ مثلاً ـ وعندَ أرسطو نفسِه ـ كانتْ مَساكِنَ للآلهةِ وكانتْ ذاتَ نفوسٍ عاقلةٍ حاسّة تطّلِعُ على الغَيبِ وتُخْبِرُ به نَفَراً من أهــلِ الأرض.

فلما جاءَ الإسلامُ حرّم التنجيمَ، إذ لا يعلَمُ الغَيْبَ إلاّ اللهُ. وقد كان للعربِ في الفلَك براعةٌ عظيمة: عَرَفوا أنّ الأرض كُرَةٌ ـ كما كان نَفَرٌ من

اليونان قد عَرَفوا ذلك ـ ثمّ قاسوا مُحيطَ الأرض قياساً دقيقاً بطريقةٍ مُوجَزَةٍ سهلة: قاسوا جزءاً من مُحيطِ الأرض هو مِقدارُ دَرَجةٍ واحدةٍ فَوَجَدوه نحوَ ستّةٍ وثلاثينَ ميلاً ونصفَ الميل، فضربوا هذا المِقدار بثَلاثِمائةٍ وستّينَ، لأنّ الدائرةَ في عِلْمِ الهندسةِ ثَلاثُمائةٍ وستّون دَرَجةً. فكان قِياسُ مُحيطِ الأرضِ في أيامِ المأمون يَقِلُّ عن قِياسِنا الحاضِرِ نحوَ خمسةَ عَشَرَ ميلاً أو تَقِلُّ. ولعلّ هذا الخَطأ كان راجعاً إلى الأدواتِ التي استخدموها ـ والتي لم تكُنْ بطبيعةِ الحالِ دقيقةً ـ لا إلى الغَلَط في الحُسبان.

ومُنذُ الجاهليةِ عَرَفَ العربُ الكواكبَ المُزْدَوِجَةَ، أي أنّ عدداً من النجوم ـ كالنَجْمِ القُطبي مثلاً ـ يتألف من شَرِيكَيْنِ يَدورُ أحدُهما حَوْلَ الآخَرِ. ولم يَعْرِفْ عُلماءُ الفلكَ ذلك إلّا في العصر الحديث المتأخِّر لما أصْبَحَ لَدَيْهِمْ مراصدُ كبيرةٌ ومراقبُ قويةٌ. وحَسَبَ ابنُ رُشْدٍ الفقيهُ والفيلسوفُ مُرورَ الكوكب عُطاردَ على وجهِ الشمس (في النهار طَبْعاً) وشاهَدَهُ نُقطةً سوداءَ تمُرُّ على قُرْص الشمس. أمّا الألفاظُ العربية في علمِ الفلك (والتي انتقلتْ من اللغةِ العربية إلى اللُّغاتِ الأجنبية) فكثيرةٌ جِدًّا، منها: الغول ـ ذَنَب (الذنب) ـ أزيموت (السَّمْت) ـ باتالغوز (إبْطُ الجَوْزاء)، ثمّ الدَبَرانُ والقائدُ والفَرْدُ وغَيرُها.

الكيمياء : الجانب التجريبي والمختبرات

ومثل الجبر، في تاريخ الثقافة، علم الكيمياء. أنّ العرب قد نقلوا كتب الكيمياء عن اليونان، ولم يكن اهتمام اليونان بالكيمياء إلّا فيما يتعلق بمحاولتهم قَلْبَ المعادنِ الخسيسة (أي الرخيصة كالرصاص والنحاس) معادنَ شريفةً (أي غالية كالفضّة والذهب).

وعَمِلَ العرب في هذا الاتجاه الخرافي زمناً. وتبدّى لجابر بن حيّان أن يدوّن ـ وهو يقوم بهذه المحاولة العقيمة ـ ما يراه من تأثير بعض الموادّ في

بعض. فوضع جابر بن حيّان بذلك أساسَ علم الكيمياء، وهو علمٌ قائم على معرفة خواصِّ الموادِّ أو العناصر وعلى التفاعل بينها. ثمّ جاء الرازيّ وصنّف تلك الموادّ ثلاثةَ أصناف: برّانيّةً أو ترابيّة (ونحن نقول اليوم غيرُ عضوية) ثمّ نباتية وحيوانية (ونحن اليوم نجعل هذين الصنفين صنفاً واحداً فنقول: عناصرُ عضوية). ثمّ إنّ الرّازيّ وصف الآلاتِ والأدواتِ والموادَّ التي تدخل في التجارِب في المختبرونَصَحَ بإعادةالتجربة الواحدةمرّة بعد مرّة. فاستتمّ له بذلك وضع علم الكيمياء - أَقْصِدُ الأسسَ الضروريّة لعلم الكيمياء. وأخذ الأوروبيّون هذا العلم عن العرب وَسَمَّوْه في لغاتهم: ألكمي، وكمستري، وشِيمِي، كلماتٍ مشوّهةً من اللغة العربية.

وربما قال لي بعضكم: ولكنّ علم الكيمياء كان معروفاً راقياً عند المصريّين مثلاً وعند البابليّين والكنعانيّين المعروفين عند اليونانيّين بالفينيقيّين، ممّا نراه عند المصريّين في صناعة التحنيط مثلاً وفي صناعة الزجاج والشَّبَه (النحاس الأصفر) وغير ذلك. إنّ هذا السؤال وجيه في العلم. ولكنّ الجواب عليه سهل ومهمّ. إنّ جميع الأمم القديمة كانت تكتم علومها وتعُدّ العلم من عمل الكهنة في الهياكل. من أجل ذلك وصلت نتائجُ الكيمياء التي كانت عند المصريين وغيرهم، ولكن لم تصل إلينا طرق استخدام الكيمياء. فالأوروبيّون أخذوا الكيمياء عن العرب ولم يأخذوها عن المصريّين. ولم يكُن فضل العرب على الكيمياء أنهم جعلوها علماً - كما كانوا من قبلُ قد جعلوا الجبر علماً - فقط، بل لأنهم أيضاً قد قدّموها إلى من جاء بعدهم هديّة منهم إلى الحضارة الإنسانية. إنّ العلم ليس تجارة لكسب المال، ولكنّه رسالة لإغناء الثقافة وخدمة الحضارة.

البصـــريـــات

وفي باب العلم أيضاً يحسن أن نذكر أبا عليّ بن الهيثم الذي صنع في

علم المناظر أو البصريّات ما صنعه الخوارزميّ في الجبر وصنعه الرّازيّ في الكيمياء. إنّ جميع القواعد الأولى في علم البصريّات قد وضعها ابن الهيثم: قواعدَ انعكاس الضوء وانعطاف الضوء (أو انكسار الضوء، كما يُقال أحياناً اليوم) وحُسبان زوايا السقوط وزوايا الانعكاس وحُسبان الانعطاف. وابن الهيثم كان يقول إنّ النور جسم مادّيّ يسير بسرعة عظيمة جدًّا، ومعَ ذلك فإنّه يحتاج إلى زمن لقطع المسافات. وهو القائل بأن للشُّعاعة الواحدة من النور طولاً وعرضاً. وهو الذي نبّه على انتكاس الخيال إذا مرّ في الغرفة المظلمة ذات الثقب. وذلك أساس آلة التصوير. ودرس ابن الهيثم العين وأشار إلى طبقاتها الضروريّة فيما يتعلّق بالبصر ثمّ قال إنّه لن يذكرَ من ذلك إلّا ما يحتاج إليه هو في علم البصر ولن يتوسّعَ في ذلك كما يُفْعَلُ في الطِّب. ويدهشنا قول ابن الهيثم: إنّ العين طريق للرّؤ ية تنقل أشباح الأشياء إلى الدماغ، والدماغ هو الذي يرى: أي يفسّر تلك الأخيلة التي هي أشباح الأشياء المنظورة.

وجاء الأوروبيّون فأخذوا ذلك كلّه عن ابن الهيثم، وليس في ذلك فضل كبير لابن الهيثم ولا عار على الأوروبيّين، ذلك لأنّ العلم تُراث الإنسانية وليس ملكاً لفلان أو لقوم فلان. وما زالت الأمم العاقلة تتعاون في سبيل الخير. والعلم سبيل من سُبل الخير.

البحث العلمي

وإلى ابن الهيثم يرجع الفضل في تنظيم البحث العلمي: يأخذ بالطريقة الاستقرائية كثيراً (أي بِصَوْغ قاعدة من مراقبة مفردات الأمور) ثمّ بالاستنباط قليلاً (أي باستخراج مفردات العلم من قاعدة عامّة مفروضة) ثم يلجأ إلى الملاحظة الشخصية والتجرِبة ليكون واثقاً من النتائج التي يصل إليها. تلك هي شرائط الأسلوب العلمي الذي نعدّه اليوم أساساً لكلّ عمل من أعمالنا.

الطــــبّ

في هذا الاستعراضِ السريع لا يجوز أن ننسى الطِّب والصيدلة والمستشفيات. لم تكنِ الأمراض بينَ عرب الجاهلية مفقودةً، ولكنّها كانت قليلةً ويسيرةً لأنّ الهواء في البادية نقيّ والطعامَ قليلُ ولأنّ البدويّ كان مُحتاجاً إلى كَثرةِ الحركة في الانتقال والحرب ولاضطراره إلى القيام بجميع أعماله بنفسه. وَمَعَ ذلك فإنّ التطبيب في الجاهلية كان تطبيبَ وِقايةٍ للحيلولة دون نزولِ المرض بالأجسام. والقول القديمُ المأثور مشهورٌ وهو: المَعِدَةُ بيتُ الـداءوالحِمْية رأس الدواء.

فلمّا خرج العرب بالإسلام إلى العالم ونزَلوا في حواضرِ البلاد تعرّضوا لفسادِ الهواء في المدن وتعوّدوا المآكلَ المغلّظة وآثروا النعيمَ فقلَّتْ حركتُهم وتعرّضوا لأمراضٍ لم تكن عندهم من قبلُ فاحتاجوا إلى أدوية جديدةٍ لمعالجة الأمراض الجديدة. من أجل ذلك نقلوا كتب الطِّب عن اليونان والهنود.

وكان لليونان طبّ علميّ طبيعيّ مِزاجيّ، أمّا الهنود فكان لهم طبّ شخصيّ روحانيّ نفسيّ. وكان اليونان يأنَفون من الأخذِ بأسلوب الهنود عند التطبيب، كما كان الهنودُ لا يَحْفِلون بِطِبّ اليونان. ولكنّ العرب أخذوا الصحيحَ الصالحَ من طبِّ هؤلاء والصحيحَ الصالحَ من طبّ أولئك ثمّ أضافوا إليهما ما عَرَفوه هم بالتجربة وما كانوا أيضاً قد عرفوه من جيرانهم الكَلْدانيّين والبابليّين وغيرهم، فكان الأطبّاء العرب ـ من أجل ذلك ـ أبرعَ من سائِر الأطبّاء الذين سبقوهم في تاريخ الحضارة.

أوجه البراعة في الطبّ

وكان للمسلمين في التطبيب براعةٌ لم تكن لسواهم: عَرَفوا المراقبة السريريّة ـ مراقبةَ سير المرض يوماً بعد يوم ـ وعرفوا انتقال المرض بالعدوى

منذ الجاهلية ثمّ عرفوا طرق انتقال العدوى. وعرف الرّازيّ أربعةَ أشياء في ذِروة العبقريّة الطِّبّيّة : فرّق بين الجُدَري والحصبة وعرف انتقالهما بالعدوى وأشار إلى الطرق التي تحول دون التشوّهات بهما. ثمّ نَصَحَ بأن يكون للإنسان طبيبٌ واحد يعالجه، لأنّ الوقوع في خطأ طبيب واحدٍ أفضلُ من الوقوع في خطأ عدد من الأطبّاء ـ ما دام كل طبيبٍ يراك للمرّة الأولى يلجأ إلى التجربة فيك. وَتَرَكَ الرّازيّ العظيم خياطة الجروح بخيوط من القُنَّب أو القطن أو الكَتّان واستخدم خيوطاً من مصارين الحيوان، لأنّ هذه الخيوط يمتصّها الجسمُ فلا يحتاجُ الطبيب إلى أن يَنْزِعَها بعدَ التئام الجروح فيُحْدِثَ للمريض ألماً وتشويهاً في جسمه ويعرّض أماكنَ الجروحِ لالتهابٍ جديد. وعرف الرّازيّ ـ وهو العالمُ الكيماويّ العظيم أن الدواء لا يتفاعل في القِنّينة ولكن يتفاعلُ في مَعِدَةِ المريض، فنصح الأطبّاء بأن يدرسوا أجسامَ مَرْضاهم قبلَ أن يصفوا لَهُمُ الأدوية.

نجوم من أطبّاء العــرب

وأطبّاء المسلمين ألوفٌ، ولكن لا بدّ من ذكر عليّ بنِ العبّاس المجوسيّ صاحب الكتاب المَلَكيّ، وكان عالماً بصناعة التوليد فذكر أن الجَنين يخرجُ من تِلقاء نفسه لأن تقلّص الرَّحِمِ ـ أي الطّلق ـ هو الذي يدفع الجنين إلى الخروج، ولا يجوزُ التدخّل في إخراجه، إلّا في الأحوال الضروريّة. وعَرَفَ العربُ التغذيةَ الصناعية من طريقِ شِقٍّ في البلعوم وبالحَقْن أيضاً، كما عَرَفَ ابن النّفيسِ الدمشقيُّ الدورةَ الدَّمَويةَ الجُزْئيّة أو الصُّغرى بين القلب والرّئتين.

وأمّا الشمسُ المشرقةُ في الطّب فكان ابنَ سينا، فقد عَرَفَ خصائصَ العدوى في السُّلّ وفي الأمراض التناسليّة وعلّل الميولَ الشاذّة في الإنسان

ودرس أحوالَ العُقم وعرف العُقْمَ العارض من تنافر الأحوال الطبيعيّة والنفسيّة بين الزوجين كما عرفَ الأسبابَ الثابتةَ التي لا دواء لها ولا علاج. . وعرف ابن سينا أن في الخُنْثى أحياناً عُضوين، وأنّ أحدَهما يكونُ ضعيفاً فنصح بقَطع العضو الضعيف الخفيّ. ولقد مررت في أثناء مطالعاتي بحوادثَ انقلبتْ فيها خنثى إنساناً سويّاً وأن القاضي وضع في ذلك سِجِلًا أخذ عليه تواقيعَ نفرٍ من النّاس.

وذكر ابن سينا الورمَ الخبيث ووصفَ شكلَه ولونه وتكلّم على أعراضه وعلى علاجه بالمُسكنات ثمّ قال: إنّ شِفاءه المأمولَ يكونُ بالجراحة في أدوار المرضِ الأولى، على شرطِ أن يكونَ الاستئصالُ واسعاً وكبيراً وعلى أنْ يُعَقّمَ الموضعُ جيّداً وَمَعَ ذلك فإنّ الشفاء غير أكيد.

المستشفيات وأنواعها

وعرف المسلمون المستشفياتِ معرفةً صحيحة، وكان الخلفاء والوزراء والأغنياء منهم يتنافسون في بناء المستشفيات وتجهيزها بالآلات والأدوات. وكان لكلّ مرضٍ مُعيّن بناء خاصّ به، كما أنّ المستشفى الواحدَ كان يضمّ أجنحةً خاصة بالرجال وأجنحة خاصّة بالنساء وأجنحة خاصّة بالأطفال.

وكانتِ المستشفيات تدفّأ في الشتاء وتبرّد في الصيف. وكذلك كان المرضى ـ وخصوصاً في أدوار النقاهة ـ يوضعون في قاعات تُعزَف فيها الموسيقى وتُعْرَض فيها التمثيليّات الفكاهيّة أو تقرأ لهم فيها القِصص المفرحة . وكان المريض إذا غادر المستشفى أعطته الدولة مبلغاً يكفيه شهرين كيلا يعملَ في أثناء ذَيْنِكَ الشهرين عملاً مُجْهِداً يُنَكِّسُه في المرض من جديد.

ووضع المسلمون البيمارستان المحمول أو المستشفى النقّال الذي

يحمل الأدوية والأغذية والأطبّاء البارعين إلى أطراف الدولة الإسلامية، فمن عادة كبار الأطبّاء ألّا يقيموا في القرى الصغيرة وفي بلدان الحدود، وإنّ كثيرين من المرضى لا يستطيعون المجيء إلى العاصمة. ثمّ لأنّ كثيرين من المرضى ليسوا فريسة أمراض بل ضحايا سوء التغذية .

٥
في الفلسفة جانب من العلم

الفلسفة تفكيرٌ نَظَريٌّ. ولكنّ هذا التفكيرَ النظريَّ يريدُ أصحابُه أنْ يَسيروا به على نَهْجٍ من المَنْطِق. بهذا تُصْبِح الفلسفةُ وَسَطاً بينَ العِلم والأدب.

ولا أُريدُ أنا هنا، في هذا الفصل، أن أسْتَعْرِضَ قضايا الفلسفة، فإنّ ذلك غيرُ مُمْكِنٍ في هذا العددِ من الصَفَحات. ولكنْ أُريدُ أنْ أعْرِضَ لعددٍ من القواعدِ الأساسيةِ التي تجمَعُ بينَ القاعدة العِلمية والواقعِ الاجتماعيّ. هي لمحات من الإنصاف للإنسانِ العاقلِ.

المأمون والتراث الإنساني

الفلسفة الوسيطة فلسفة إسلامية:

رأينامن قبلُ أن هِجْراتِ البرابرةِمن الجرمان والهُون قد قَضَتْ على معالمِ الحضارة الرومانية ومعالمِ الثقافة في العالمِ القديم. ومَعَ أنّ تلك المعالم للحضارة والثقافة قد ضاعتْ من حياةِ الناس فإن جانباً كبيراً ظلّ مدخوراً في الكُتُبِ التي لم تَصِلْ إليها يدُ الهَمَجيّة. ثم إن النصرانيةَ لما انتشرتْ في بلادِ اليونان أمرَ الأباطرةُ البيزنطيّون أو ملوكُ الروم، كما يقولُ العربُ، بِطَمْرِ كتبِ العلمِ والفلسفة في الدهاليزِ أو عَمَدوا إلى إتلافِها، ظَنّاً منهم ان العِلم والفلسفةَ مُنافيانِ للدين.

ووقعتْ حربٌ بينَ المسلمين والروم، واستطاع الخليفةُ المأمونُ أن يقودَ جيشَه الى قلب بلاد الروم، فاضْطُرَّ تُوفيلُ ملكُ الرومِ أن يطلُبَ الصُلحَ من المأمون. ففرَضَ المأمونُ على توفيلَ غرامةً قَدْرُها نصفُ مِليونِ دينارٍ، كما

يقولون. ثم جاءَ من قال للمأمونِ إن في بلاد الروم كُتُباً في العِلم والفلسفة مطمورةً في السراديب. فانتهزَ المأمونُ الفُرصةَ وعَرَضَ على توفيل أو ثيوفيلوس أن يسمَحَ له بأَخْذِ هذه الكتبِ بَدَلَ الغَرامةِ المالية. ففَرِحَ توفيلُ لأنّه عدّ بضعةَ أحمالٍ من الكتب تُباعُ بِنصْفِ مِليون من الدنانيرِ رِبْحاً وفيراً. أما المأمونُ فعَدّ ذلك نِعمةً عظيمة. وبينَما كان ملك الروم يرى أنّ كتب العلم والفلسفة لا قيمةَ لها لأنّها (فيما كان يعتقدهُ توفيلُ مَلِكُ الروم) مخالفةٌ للدين، كانَ الخليفةُ المأمونُ أيضاً يستبدلُ هذه الكُتُبَ بنصفِ مِليونِ دينارٍ عملاً بأمرِ الدين. ففي الأثرِ عن رسولِ الله ﷺ: «الحِكمةُ ضالّةُ المؤمِن، حيثُ وَجَدَها الْتَقَطَها».

ولقد نقلَ المسلمون كُلَّ ما وقعتْ عليه أيديهِمْ مِنْ كتب العلم والفلسفة. ولم يكنِ المسلمون يَعْرِفون اللُّغات القديمةَ فاستخدموا في نَقْلِ هذه الكتبِ رِجالاً من النصارى ومن اليهودِ ومن المَجوس ومن الصابئة الوثنيين.

ومما يؤسفُ له، ثم هو يَسُرُّ في الوقت نفسِه، أنّ كثيراً من أصول كتبِ العِلم والفلسفة قد ضاع، ولم يَبْقَ إلّا في النصوص العربية. من أمثلةِ ذلك أنّ كتابَ المِجسطيّ لبَطْلَيْموسَ القَلُوذِي - وهو كتابٌ ضَخْمٌ في الفلك والرياضيّات خاصّة - قد فُقِدَ مرّةً واحدةً، ونحن لا نَعْرِفُ هذا الكتابَ الجليلَ، إلّا من نُسخِهِ العربية. وشبيهٌ بذلك كتابُ الأصولِ أوِ الأركان لإقْليدُسَ - أي كتابُ الهندسةِ المُسْتوية - فَقَدْ بَقِيَ مفقوداً سَبعةَ قرونٍ تامّةً لم يَعْرِفِ العالمُ في أثنائها هذا الكتابَ القيّمَ إلا في النُسَخِ العربية.

تحكيم العقل والتسامح

وبحر الفلسفة واسعٌ جِدًّا، ولا فائدةَ من المُضِيّ في تاريخ الفلسفة الطويل نُشير إلى مُفْرداتِ المعارف التي تناولها الغَرْبُ المَسيحيّ من الشرق

المُسلم. إن هذا شَرْحٌ يَطول. ولكنْ لا بُدَّ من ذِكْرِ مبدأٍ هو ألْصَقُ ما يُمْكِنُ بحديثنا هذا: تحكيمُ العقلِ.

إن تحكيمَ العقلِ في الأمور، والذي كانَ مَدَارَ التفلسُفِ اليونانيّ ثم طَمَسَتْهُ الكنيسةُ قد أعاده المسلمون إلى مكانتِهِ الصحيحة. ثم أدرك رجالٌ في النَصْرانية ان تحكيمَ العقل ضَروريٌّ وان البراهينَ وحدَها هي سبيلُ الإقناع بينَ العاقلين. من أجـل ذلك كانتِ البراهين التي جاءَ بها كبيرا فلاسفةِ الكنيسة : ألْبَرْتُ الكبيرُ والقدِّيس توما على الصِلة بينَ العقلِ والوَحْي، مثلاً، قد أخَذَاها من فلاسفةِ الإسلام: من ابنِ سينا والغزّاليّ وابنِ طُفيلٍ وابنِ رشْدٍ.

غير ان التسامحَ الذي كان في سلوكِ ابنِ رُشْدٍ لم يكنْ موجوداً عندَ خُصومه. يقولُ ابنُ رُشْدٍ في أخْذ العِلم عن غيرِ المسلمين:

«فَبَيِّنٌ أنه يجبُ علينا أنْ نستعينَ بما قاله من تَقَدّمَنا، سَواءٌ أكانَ ذلك الذي تقدّمنا مُشاركاً لنا في المِلّة أو غيرَ مشارِكٍ لنا في المِلّة؛ إذا كان ذلك الذي قالَه مُوافِقاً لشَرائطِ البرهان. وأَعْني بغيرِ المُشارك لنا في المِلّة مَنْ نَظَرَ في هذه الأشياءِ قبلَ مِلّة الإسلام .... وإذا كان هذا هكذا، فيجبُ علينا إذا ألْفَيْنــا لِمَنْ تَقدّمَنا مِنَ الأمم السالفةِ نَظَراً في الموجوداتِ واعتباراً لَها بِحَسْبِ ما اقْتَضَتْهُ شَرائطُ البرهان، أن نَنْظُرَ في الذي قالوه من ذلك وأثبتوه في كُتُبِهِمْ: فما كان منها مُوافقاً للحقّ قَبِلْناه منهموسُرِرنـا به وشكرناهُمْ عليه، وما كان منها غيرَ موافقٍ للحقّ نَبّهْنا عليه وحذّرْنا منه وعَذَرْنَاهم».

وبينَما كان ابْنُ رُشْدٍ يقولُ هذا القولَ النبيلَ كان خَصْمه دَنْسُ سُكوتوس يقولُ في ابنِ رُشْد نفسِه: «ابنُ رُشْدٍ كَلْبٌ كَلِبٌ ينبَحُ على النَصْرانية».

حريّة الفكـــر وانصاف الخصـــوم

وجميع الناس يتكلمون في حُرّية الفِكر، ومُعْظَمُهم يَظُنّ أنّ حرِّيَّة الفكر إنما هي في التحلُّل من الحُدود والقُيود وفي رفْض القوانين والأعْراف، ففي القُدمَاء كان أصحابُ المذهب الكَلْبيّ الذين اعتقدوا أنّ الإنسانَ حُرٌّ في كل ما يفعلهُ حتى إنّهم كـانوا يعمَلون مـا يشاءون في الأسـواق كمـا تفعَلُهُ الكلابُ ـ ومنْ أجلِ ذلك سمّاهُمْ مُعاصروهم كونيكوس «الكلابَ أوِ الكلبيين». وفي أيامِنا أيْضاً جماعاتٌ يَرْفِضونَ كُلَّ شيء بِحُجّةِ حُرّيَّةِ الفِكر: يَرْفِضون قوانينَ الدولة وقواعدَ الأخلاق وضوابطَ العُرْفِ الاجتماعيّ. فمن حرّية الفِكر عندَ هؤلاء مثلاً أن يلبَسَ أحدُهُمْ سِروالةً حمراءَ وسترة خضراءَ وقميصاً سوداءَ وعُقدةً صفراءَ. وإذا قيل لأحدِهِم: «يقولُ العِلم والطِّب إن التدخينَ يُعِدُّ الجِسم لمرض السَرَطان»، ازدادَ رَغبةً في التدخين حتى يُعَبِّر عن حُرّية رأيِهِ في تَسفيهِ آراءِ العُلماء والأطبّاء وفي تسفيهِ أمورِ الشرع ونصائح الدين.

أمّا الإسلامُ فقد أرادَ أن يُحرّر الفكر من السُلوك المخالفِ للعَقْل وللعلم. وسآتي هنا على هذا بثلاثةِ شواهدَ قِصارٍ من الإسلام.

* الشاهدُ الأول : من القُرآنِ الكريم [٦ : ١٥٣ ، سورة الأنعام]: ﴿وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلوا، ولو كانَ ذا قُرْبى. وبِعَهْدِ الله أوْفُوا﴾.

* الشاهدُ الثاني : للإمام الغزّاليّ أخَذَهُ من عَلِيّ بنِ أبي طالبٍ كرّمَ اللهُ وَجْهَهُ:

«اعْرِفِ الرجالَ بالحقّ، ولا تَعْرِفِ الحقَ بالرجال».

* الشاهد الثالث: مِنَ الشَرْعِ العامّ (من القانون):

«يُزكّى الإنسانُ في قَوْمِهِ». إذا تقدَّمَ شاهدٌ إلى القاضي وكان القاضي لا يَعْرِفُه فإنه يزكّيهِ (أي يطلُبُ تَزْكِيَتَهُ من شَخْصٍ يَعْرِفُه أو من أشخاصٍ يَعْرِفونه). فإذا كان الشاهدُ مُسْلِماً سألَ عنه في قومِهِ المسلمين. وإذا كان نَصْرانيّاً مثلاً سألَ عنه مَنْ يَعْرِفُه من النصارى. وإذا كان أحد الرجلين نجّاراً مثلاً سألَ القاضي عنه مَنْ يَعْرِفُه مِنَ النّجارين. أَلَيْسَ هذا نظامَ المُحَلَّفين في الولاياتِ المُتَّحدة الأميركية يُطَبِّقونَه على المُتَّهم؟

ثمّ إنّ الإسلامَ أرادَ أن ينظُرَ الإنسانُ في الأمور بتفكيره هو إلى الأمورِ نفسِها. إن العَدْلَ يكونُ لصاحبِ الحقّ، سواءٌ أكان صاحبُ الحقِّ قريباً لك أو غريباً عنك. ومِنْ تحكيمِ العقلِ في الإسلامِ رُؤيةُ الحقِّ حيثُ يكون الحقُّ بقَطْعِ النَظَرِ عمّنِ ادّعى ذلك الحقَّ.

كان عُمَرُ بنُ الخَطّاب يوماً على المِنْبَرِ يخطُبُ ـ وقد هالَهُ ارتفاعُ المُهور فقال: أوشِكُ أنْ أحدِّدَ المُهور حتى لا يَدْفَعَ أحدٌ مَهْراً لِعَروسٍ فوقَ ما يَجِبُ. وأُوشِكُ أن أسْتَرِدَّ ما دُفِعَ فوقَ القَدْرِ المَشْروع. فقامت امرأةٌ مِنَ الجانبِ الأقصى في المسجد وقالتْ له: «ليسَ ذلك لكَ، يا عُمَرُ. إن اللهَ تعالى قد قال [٤ : ٢٠ ، النساء] : « ﴿وإنْ أردتُّمُ استبدالَ زَوْجٍ مكانَ زوجٍ وآتَيْتُمْ إحداهنّ قِنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً. أتأخُذونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً؟﴾ فقال عُمَرُ ـ وهُوَ على المِنْبَرِ ـ : أخطأَ عُمَرُ وأصابتِ امرأةٌ. تلك هي حُرّيةُ الرأيِ في الإسلام: أن تقولَ الصوابَ وتفعَلَ الصوابَ وتحكُمَ بالصوابِ. أمّا الوُجوديّةُ ـ وهي عندَهُم أن تُدِيرَ ظَهْرَكَ للعقلِ والعلمِ والأخلاقِ والقانونِ ـ فلا أقولُ إنها ليستْ من الإسلام أو ليستْ من النَصْرانية أو ليستْ من الوثنية. أنا أقولُ إنّها ليستْ مِنَ الإنسانيةِ في شيءٍ.

٦
للمظاهــر الجميلة منافعها أيضاً

يتّخذُ الناسُ الثيابَ ليدفعوا بها عن أنفسِهِمْ أذى البَرْدِ والحرّ. ولكنْ من المُسْتَحَبِّ أيضاً أن تكونَ تلك الثيابُ مُريحةً ثمّ جميلةً إذا أمكَنَ. وما يُقالُ عن الثيابِ يُقال أيضاً عن الأبنيةِ ويقال مِثْلُه أو قريبٌ منه عن الحَرَكاتِ الاجتماعية والدَعَوات الإصلاحية وعن الخَطابة والصَداقة والسِياسة وغيرِ ذلك.

إنّ الإنسانَ ـ كما يقولُ ابنُ خَلْدونٍ ـ إذا استوفى حَظّه من حاجاتِهِ المادّيةِ ومن ضَروراتِ الحياةِ الْتَفَتَ إلى الأمورِ الكَمَالية تأنّقَ فــي طعــامــهِ وشَرابــه ولِباسه وفي بِناء بيوته وفي مَسيره وقيامــه وقُعوده وفي حديثهِ مَعَ الفردِ بعدَ الفردِ أو مَعَ المَجْموعِ بعدَ المجموع.

والإنسان عامّةً ميّالٌ إلى تَحْسينِ أحوالِه ثمّ هو يُنْفِقُ من الوقتِ والجُهد والمال على هذه الكَماليّا ـِ من الزينةِ أكثَرَ مما يُنْفِقُ على تلك الحاجات التي تدعو إليها الأسبابُ الضَروريّةُ للحياة الإنسانية نفسِها.

الزخرف العــربي

إنّ الزُخْرُفَ فنّ جميلٌ ونافعٌ في وقتٍ معاً. وهو فَنٌّ عربيٌّ إسلاميّ: لا أظُنُّ أحَداً يُخالفُني إذا أنـا قُلتُ إن فنَّ الزُخْـرُفِ الذي يتـألف من خُطوطٍ مُتداخلةٍ ومن أغصان وأزهار مُتشابكةٍ فنٌّ عربيّ: إن الإفْرنْجَ أنفُسَهم يُسَمّونه «آرابسك». وأنتَ لا ترى اليومَ نافذةً في كَنيسةٍ أو باباً في قَصْر أو لَوْحةً في كتابٍ أو قِطْعةً من وَرَقِ العِملة إلّا في بَعْضِها شيءٌ من هذا الفنّ.

إنّ هذا الزُّخْرُفَ أوِ «الآرابسك» من أثر الإسلام. إنّ الإسلامَ قد كَرِهَ تصويرَ الأحياءِ، وخُصوصاً من بنـي الإنسان، لِأنّ الصُوَرَ والتماثيلَ كانتْ من وَسائِلِ العِبــادة في الوثنية وبعضِ النَصْرانية. ولكنّ الفنّ وَجْهٌ مِنْ أوْجُهِ العبقريةِ المَغْروزة في الطبيعةِ الإنسانية. فلما نَظَرَ الإسلام إلى صُوَرِ الأشخاص نِظْرَةَ كُرْهٍ اتجهتْ عبقريّةُ ذَوِي المواهبِ الفنّية في الإسلام إلى حُسنِ الخطِ وإلى البراعةِ في الزُخْرُفِ وإلى المُنَمْنَماتِ أوِ الأعمالِ الفنيّة التي هي في غايةِ الصِغَرِ أو في غاية الدِقّة ككِتابة الــدستورِ العُثمانيّ على بَيْضةٍ (مِنَ الرُّخام طَبْعاً) وككِتابةِ سُورةِ الفاتحة وهي ثَلاثونَ كَلِمةً أو مِائَةُ واثْنان وأربعون حَرْفاً على حَبّةِ أرُزٍّ (وقد برع في ذلك من أهل عصرنا الشيخ نسيب مكارم).

نمط البنــاء القوطي

وهنا يأتي نَمَط البناء القوطي.

إنّ الكنائس الأولى كانت على النَمَطِ الرومانيّ: جدرانٌ ضَخْمةٌ كالسُدود وسُقوفٌ مخروطةٌ (منحدرةٌ من نُقطةٍ أو من خطّ) ومداخلُ مألوفة ضيّقة. وفجأةً يبرُزُ في أوروبّةَ فنٌّ في عِمارةِ الكنائس أنيقٌ رَشيقٌ، ذو جُدرانٍ عاليةٍ رقيقةٍ ونوافذَ كثيرةِ السَعَةِ مختلفةِ الأشكالِ بسُقوفٍ مرتفعةٍ مُدرّجة وأبراجٍ متنوّعةٍ، تكثُرُ في داخِلِها المُقرْنَصاتُ من الصواعدِ والهوابط (أشكالٌ مجُسّمةٌ في الأعالي تتّجهُ حيناً إلى عَلُ وحيناً آخَرَ إلى تحتُ، ويَشيعُ الزُخْرُفُ في كُلّ جُزءٍ منها). ولا يكادُ البَصَر يخُطىء ـ عند النَظَر إلى أبْراجها ـ أشكالَ المآذنِ. إن الخيرالدا (أو الجيرالدا، كما يقول غيرُ الإسبان) مِئذنةٌ لمسجدٍ كان في إشبيلية، وهي نفسُها اليومَ بُرْجُ كنيسةٍ. ولعلّها أجملُ أبراجِ الكنائس كُلِّها. وعلى كل حالٍ هي أجملُ الأبراجِ التي أُتيحَ لي رُؤيتُها عِياناً، في إيطالية وألمانية وإسبانية وفَرَنْسة وإنكلتَرَةَ ـ أو في كُتُبِ العِمارة والفَنّ. وليس بين يَدَيّ الآنَ دليلٌ من كتــابٍ على أنّ المِعمار (أي المهندسَ) الذي تولى بناء الكنيسةِ الكُبرى فــي باريسَ كان

رجُلاً مُسلِمًا اسْمُهُ سُليمانُ. وفي كثيرٍ من قُصورِ أُوروبَّة، وفي فرنسةَ مثلاً، تَجدُ الزُخرُفَ كالمحاريبِ والأهِلةِ والخُطوط مما لا جِدالَ في أنه من أثَرِ الفنِّ الإسلاميِ.

قصـــر شامبور

في زورتي الأخيرة لفرنسة في هذا العام وَقَفَ جماعةٌ منا، وكنا وفداً كبيراً، نتأمّلُ في تفاصيلِ قصرِ شامبورد (في مِنْطقة اللُّوارِ جَنوبَ باريسَ) ونعجَبُ للأشكالِ التي لا تُخْطِىءُ العينُ في أنها إسلامية.

وكان في قصرِ شامبورد، في ذلك اليومِ، وفودٌ مختلفةٌ لم يلتفتْ كثيرٌ منهم إلى ما ألْتَفِتُ أنا إليه مَعَ نَفَرٍ من رِفاقي. ولكنّ جميعَ الوفودِ كانوا يُعْجَبون مِنَ السُلَّمِ المُزْدَوِجِ ـ هما سُلَّمانِ في بيتٍ واحدٍ يدورُ أحدُهما على الآخَرِ، فإذا استخدم اثْنانِ هذيْنِ السُلَّمَينِ في وقتٍ واحدٍ فإنّ كُلَّ واحدٍ منهما لا يستطيعُ أنَ يَرى الآخَرَ. وأذكُرُ أنّ جميعَ الزائرين قدِ استخدموا هذا السُّلَّمَ صُعوداً وهُبوطاً من بابِ الفُضول. هذا التصميمُ لذلك السُّلَّمِ المُزْدَوِجِ ليسَ ابتكاراً فرنسيّاً. إنّ بناءَ قصرِ شامبورد تمَّ في عام ١٥٤٠ للميلاد (٩٤٧ للهجرة). في ذلك الحينِ كانَ قد نشأ في المسلمين مِعمارٌ (أي مهندسٌ) مُسْلِمٌ عبقريٌّ هو خَواجه (اقرأ خوجه) مِعْمارْ سِنانْ وُلِدَ في سَنَةَ ٨٩٥ هـ (١٤٨٩ م). وهو صاحبُ فِكرةِ المآذنِ النحيلة والتي كان في عَدَدٍ منها هذا النوعُ من السلالِمِ المُزْدَوِجَةِ. وقد بنى المِعمارُ سِنانٌ ثلاثَمِائَةٍ وثلاثةً وأربعين بناءً في البُلدانِ العثمانية تنتشرُ ما بين البوشناق (البوسنة: في يوغوسلافية اليومَ) ومكّةَ، منها واحدٌ وثمانونَ جامعاً وخمسون مسجداً (والجامعُ هو المسجدُ الكبيرُ الذي تُقام فيه صلاةُ الجُمُعة) وثلاثةٌ وثلاثون قَصْراً وثلاثةٌ وثلاثون حماماً وعددٌ آخَرُ من المدارس والجسور والأقْنِيَةِ لِجَـــرِّ المياه وغيرُ ذلك. وكان لسنانٍ هذا تلاميذُ يساعدونه، ومَعَ ذلك

فإنه موصوفٌ بالعبقرية. وقد قارَنَهُ كاتبُ تَرْجَمَتِهِ في دائرة المعارف الإسلامية (الجزء الرابع من الطبعة الأولى، ص ٤٢٨ ـ ٤٣٢) بالفنّان الإيطالي العظيم ميكال أنجَلو. وبالإضافة إلى تقارُبِ المعمارِ سِنانٍ والرّسام المثّالِ ميكال انجلو في العبقرية فقد تقاربا أيضاً في طريق الزمان: عاشا كلاهما تسعين سَنَةً، ولكنّ العَبْقَريَّ الإيطالي جاء إلى الحياة قبلَ العبقري العثماني بخَمْسَةَ عَشَرَ عاماً ثم سَبَقَه في الوفاةِ خمسَةَ عَشَرَ عاماً أيضاً.

الإصلاح الديني في أوروبّا

ولعلّ نفَراً منكم سيفاجأون مفاجأة شديدةً حينما أقولُ: إن الإصلاحَ الدينيَّ في أوروبة (وأقْصِدُ الحَرَكَةَ البروتستانتية) أثَرٌ من آثارِ الإسلام في الحضارة الإنسانية. إن رَفْضَ السُلطةِ الدينية لبعضِ الناسِ على بعضٍ (كسُلطة البابا مثلاً) وتحريمَ الصُوَرِ والتماثيلِ في العبادة ثم إلغاءَ مراتبِ الكَهَنوت ثم نِظرةَ الكُرْهِ إلى التبتّلِ ثم القول بمُخالفة الرهبنة للعقلِ والمنطق والاجتماع الإنساني ولطبيعيةِ الإنسانية ثم نجاةَ الإنسان في الآخِرَةِ بعَمَلِهِ وحدَه لا بوساطةٍ ولا بشفاعةٍ ولا بشراءِ بقاعٍ في السماء من نَفَرٍ يَبيعون ما لا يَمْلِكون وغير ذلك مما نعرفه في المذاهبِ البروتستانتية لم يكنْ إلاّ من خصائص الإسلام. وقال لي أُستاذي يوسف هل (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠ م) رَحِمَه اللهُ ـ وكان مستشرقاً ألمانيًا كاثوليكيا ـ : لا شك في أنّ لوتر (لوثر) كان ـ وهو يَضَعُ قواعدَ حَرَكتهِ الإصلاحية ـ ينظُرُ في نُسْخةٍ من القرآن الكريم. إن القرآنَ الكريمَ كان منقولاً إلى اللاتينية مُنذ زمنٍ باكرٍ، منذ القرنِ الثالثَ عَشَرَ للميلاد أوْ قبلَ ذلك أيضاً. وقد طُبِعَت النسخةُ اللاتينية في سويسرة عامَ ١٥٤٣م قبلَ وفاةِ لوثرَ بأربعةِ أعوامٍ.

الجبّة والعمامة

وهنالك آثارٌ كثيرة لا تكاد تُحصى، ولكن الوقتَ لا يتّسع لها. غيرَ أن أثراً

واحداً يحسُنُ ذِكْرُه قبل الملاحظة العامّة التي أريدُ إبداءها قبلَ خِتام حديثي. أقْصِدُ الجُبّةَ والقُبّعة التي يرتديها رِجالُ العلم في المناسبات الأكاديمية .

الجُبّةُ والعِمامة ليستا في الأصل لِباساً دينيا. وليسَ في الإسلام لباسٌ خاصٌ برجالِ الدين ولا مكانٌ خاصّ للعبادة. ولكنّ العرَبَ كانتْ ـ كما يقولُ الجاحظُ ـ تلزَمُ العمائمَ في الأعياد وعند المُناظرات وفي الوُفود وفي مجالِس العلم. فبهذا النَظَرِ تكونُ الجُبّة والعِمامة زيًّا عربيّاً إسلامياً لمناسباتٍ معيّنة.

ونلتفتُ إلى المجتمع العِلمي في العالم اليومَ: في أوروبةَ وأمريكا وفي البلادِ التي يُقلِّدُ أهْلها سُكانَ هاتينِ القارّتين، أعني في آسِيَةَ وفي إفريقية. في جميع هذه القارات التي عَدَدتُ وفي قارّةِ أوسترالية أيضاً يقضي الأساتذة وطُلاّبُ العِلم أيامَ أعوامهم كُلَّها في ثيابٍ عادية، وربّما اكتفى أحدُهم بسِروالةٍ زرقاءَ طويلةٍ أو قصيرةٍ وبقميصٍ اسمرَ قصيرِ الكُمّين، أو يلُفّ هو كُمَّيْ قميصهِ إلى ما فوقَ المِرْفقين (كأنه يَسْتَعِدّ للوُضوء)، ورُبّما ترك هذا القميصَ غير مَزْرورٍ عند العنق. ولكنْ في المناسباتِ الثقافيةِ الرسمية، وخصوصاً عندَ الاحتفال بمَنْحِ الشهادات، يظهَرُ الأساتذةُ كُلُّهم والطُلابُ المُرشحون لنيل الشَهادة في زِيٍّ رسميّ وقورٍ خاصٍ.

أما الجُبّة السوداءُ السابغة فواضحةُ الصِلة بلِباسِ العرب المسلمين، والذي اتخذه المشايخ زِيًّا لهم بعدَ الصَدْرِ الأولِ للإسلام. وأما شِبْهُ القُبّعة ذاتُ الإطار المستديرِ العالي فهو يُقابِلُ العِمامةَ. وأمّا المُسْتَطِيلُ أوِ المربّعُ المُلقى على إطار شبه العِمامة فيمثّلُ المُصْحَفَ ـ والمُصْحَفُ كتابٌ يُنسخ فيه القرآنُ الكريم أو يُطْبع ـ فلا تَقُلْ عندِي قرآنٌ، بل قل: عِندي مُصْحَفٌ أو مصحفانِ أو عندي عددٌ أو أنواع من المصاحِف.

وما رمز المربّع على شبه العمامة؟

كانتِ العادةُ، إذا أرادَ أحدٌ أن يقطَعَ على نفسِه عهداً أوْ أنْ يُقْسِمَ يميناً أوْ أنْ يَشْهَدَ شهادةً، أن يُوضَعَ على رأسِهِ مُصحَفٌ يُدْخِلُ على نفسه شيئاً من الرَّهْبَةِ فلا يُفكرُ في نَقْضٍ للعهد ولا في شهادةِ زور. والشُّرّافة (والعامة يقولون: شرّابة) من أينَ جاءت؟

العادةُ أن يُجْعَلَ للمُصحف كيس من حريرٍ أو مِنْ نسيجٍ ثمينٍ، وأنْ يجعلَ لذلك الكيسِ شُرّافةٌ، زيادةً في التَزيينِ. وكان المُصحَفُ إذا وُضِعَ على رأسِ الشاهدِ أو الحالف كان في كيسهِ والشُّرّافة مَعَه تَتَدَلّى إلى جانبِ رأسه. ولا نَزال إلى اليومِ إذا اسْتَحْلَفْنا شَخْصاً، نقولُ له: يَدي على رأسِك.

إن هذه الأشياءَ المجتمعةَ ـ والتي هي كُلُّها مُخالفةٌ للحياةِ الأوروبيةِ، ولكنّها موجودةٌ في الحياةِ الإسلامية العادية ـ لا تَدَعُ مجالاً للشك في أنّ الجُبّة وشِبْهَ القُبّعة Cap and gown مأخوذةٌ من عاداتِ عوامٍّ المسلمين.

الغاية من هــذا الســرد

ما زال هنالك أشياءُ كثيرةٌ يُمْكِنُ التحدّثُ فيها: الطلاقُ مثلاً وتعدُّدُ الزَوْجاتِ (سِرا وجَهْراً) والطِبُ والمُسْتَشْفَياتُ وعلمُ الاجتماعِ والديموقراطيةُ أوِ الشُّورى والآلاتُ الموسيقية وأسماءُ أدواتِ الكيمياء وعلمُ الكلامِ ومدركُ الجَنّةِ والنارِ كما ورد في الكوميديا الإلّهيّة لدانتي وسوى ذلك مما يقتضي أحاديث كثيرة لا حديثاً واحداً.

غير أنّ كُلَّ هذا الذي ذَكَرْتُه ثم كُلّ ما يُمْكِنُ أنْ أذْكُرَه ليستِ الغاية منه أن أقولَ: إن الإفْرنج أخذوا من العرب أو أنّ النَّصْرانيةَ أخَذَتْ من الإسلام أو أخَذَ المُسلمون من النصارى. ما هذا قَصَدتُ. لقد قَصَدتُ أنْ أدُلَّ على أن الحضاراتِ تتجاوَر وتتحاوَر وتتزاوَر. فما من أُمّةٍ على مستوًى مُعيّنٍ من الحَضارة إلاّ أخَذَتْ من غَيْرِها وأخذ غيرُها منها. وفي زمانِنا نفَرٌ مُسلمونَ

يُقلِّدون اليهودَ والنصارى وليسوا يهوداً أوْ نصارى. وهنالك نفَرٌ من اليهود والنَّصارى يقلِّدون المسلمين وليسوا مسلمين. ودعوني الآنَ من الأمْثِلَةِ كيلا يَطولَ الكلامُ فوقَ ما يجبُ وفوقَ ما سَمَحَ لي الذين تلطفوا بإقامة هذا المِهْرجان في استقبالِ القرنِ الخامِسَ عَشَرَ الهِجري (*).

* من الغريب أن اللجنة التي عهد إليها بالتهيئة للاحتفال بالقرن الهجري الخامس عشر قد جعلت بدء هذا القرن سنة ١٤٠٠، مع أنّ العدد يبدأ عادة بالواحد. فالقرن الخامس عشر يبدأ سنة ١٤٠١. ولقد نبّهت أنا على ذلك مراراً، ولكن ألقيت أنا جانباً من المحاضرة لتلك المناسبة لأنّ اللجنة كانت قد أعدّت العدّة ونشرت الإعلان للحثّ على الاحتفال باستقبال هذا القرن.

٧
التاريخ حَكَمٌ وليس قاضِياً

التاريخُ وصفٌ لِتَطوُّرِ الحَضارةِ: إنّه صورةٌ للحياةِ الإنسانيةِ. إنّ عَمَلَ التاريخِ أنْ يُسجِّلَ حَرَكاتِ الإنسانِ في هذا العالمِ الفسيح. ولكنّ التاريخَ لا يُسجِّلُ جميعَ حَرَكاتِ الإنسان، فإنّ بعضِ تلك الحَرَكات لا يَسْتَحِقُّ التسجيلَ ـ من مِثْلِ حركاتِ الإنسانِ المكْرورةِ المُعادةِ والتي لا هَدَفَ لها في خارجِ نفسِها كالغَزَواتِ التي كان العَرَبُ يَقُومونُ بها في جاهِلِيّتِهِمُ القديمةِ وكالحروبِ التي تَقومُ بها اليومَ أُمَمُ الأرضِ في كلِ مكانٍ، وليسَ فيها إلّا تدميرٌ للحَضارةِ التي بناها العاقلون من بني الإنسان.

حينما يُحْسِنُ الإنسانُ إحساناً يَزيدُ في حضارة الإنسانية يُسَجِّلُ له التاريخُ عَمَلَهُ واسْمهُ على «وَجْه الدهر». ولكن حينما يَخيبُ الإنسانُ في عَمَلٍ، مهما تَكُنِ الأسبابُ في خَيْبَتِهِ تلك ـ فإنّ التاريخَ يمُرُّ بذلك الإنسانِ مرَّ الغافلِ أوِ المُهْمِلِ.

ولا ريبَ في أنّ في تاريخِ الأمَمِ أبطالاً في السياسةِ والحرب وأن في تاريخِ الأمَمِ أبطالاً في العِلم والأخلاق. ولا ريبَ أيضاً ـ وفوقَ ذلك ـ أن الخلودَ على «وجهِ الدهر» لرجالِ الأخلاقِ ولرجالِ السياسة والحرب من ذَوِي الأخلاق. ليسَ في سِجِلِّ التاريخ صَفَحاتٌ إلّا للذين حَمَلوا مِشعالَ العلم في مَوْكِبِ الحَضَارةِ الإنسانيةِ وإلّا للذين ساعدوا بأعمالِهِمُ المُختلفةِ في سَبيلِ رُقِيِّ الحضارةِ الإنسانية .

التـــاريـــخ

والبحث في العلوم الرياضيّة والطبيعيّة كالهندسة وعلم الأنساب أو

المثلثات والفلك وعلم النّبات وعلم الحيوان والكيمياء والفيزياء يبدو أحياناً ثقيلاً على النفوس فلننتقل إلى شيء من العلوم الاجتماعية فإنّ النفوس إليها أميل. والنّاس يحبّون التاريخ، فَلْنَمُرَّ بالتاريخ مرًّا خفيفاً.

إنّ التاريخ العربي كلّه كان أخذاً وعطاء. إنّ أبا جعفرٍ الطبريَّ سيّدَ المؤرّخين قد جمع في كتابه كلّ الروايات التي وصلت إليه بأسانيدها ـ كما يفعل أهل الحديث ـ ثمّ قال للذين سيجيئون بعده: خذوا هذه المادّة الخامَ وأجيلوا فيها عقولكم ثمّ احْكُموا على الأحداث وعلى الذين تجري هذه الأحداث على أيديهم.

العالم الاجتماعي ابن خلدون

ثمّ جاء عملاق التاريخ ابن خلدون فوجد أن الكثرة من المؤرّخين ما زالت تُولِي قِصَّة التاريخ اهتماماً كبيراً. كانت تلك الكثرة من المؤرّخين تهتمّ بأخبار الملوك وبتفاصيل المعارك ثمّ تضيع في مفردات من الأحداث تتكرّر في كل يوم وفي كل زمن، ولكن لا توجب حُكماً ولا تصوغ قاعدة. فقال لنا إنّ التاريخ علم من علوم الفلسفة عمله وصف تطوّر البيئة الاجتماعية بكلّ ما فيها من سياسة وحرب وعلم وفنّ وأحوالِ مَعاشٍ يشترك فيها الأغنياء على قَدْرِهم والفقراء على قدرهم والبَدْو على شاكلتهم والحضَر على زِيّهم. إنّ التاريخ هو وصفٌ لتطوّر الحضارة الإنسانية. والتاريخ عند ابن خلدون ليس فوراتٍ متقطّعةً هنا وهناك. إنّه مجرى كبير واسع تخوضه الأمم على مراتبها في الرُّقيّ الحضاريّ. والتاريخ لا يَعُدُّ من حياة كلّ أمّة إلاّ الفترةَ التي تقوم كلّ أمّة فيها بعمل حضاري نافع للإنسانيّة جمعاء . أمّا ما يجري في عواصم الأمم وفي قرى الأقاليم فلا قيمةَ له إلاّ بمقدار ما يكون له من التأثير في التقدّم الإنسانيّ.

القصص بـــاب مـــن التاريـــخ

وفي القَصَص البحت ـ وهو أيضاً جانب من التاريخ ـ قام العرب بتبادل ثقافيّ رائع. الأدب العربيّ لم يَعْرِف القِصَص الطِّوال ولا القصائد الطوال ـ كما عَرَفَ القدماءُ من الهنود واليونان والفرس ذلك . إنّ أطول القصائد العربية قصيدةُ عَمْرِو بنِ كُلثومٍ زعموا أنها كانت ألفاً ومِائَةَ بيتٍ، وليس لدينا منها اليوم سوى مِائَةِ بيت أو تزيد قليلاً. ثمّ جاء ابن الروميّ فأطال القصائد ولعلّه بلغ ببعض قصائده إلى ثلاثِمِائَةِ بيت. ولا عِبرةَ بالألفيّات التي نُظمت أراجيزَ في النّحو والطِّب وما أشبه. ومعَ ذلك فإنّ هذه ـ وعِدّة إحداها ألفُ بيت ـ لا تقاس بالألياذة لهوميروس اليونانيّ ولا بالشاهنامه للفردوسيّ. وبلاد العرب بلاد دافئة جداً لا تطول فيها الليالي ولا تدوم الثلوج فَيَحْبِسَ النّاسُ أنفسهم في بيوتهم ليستمعوا إلى القِصَص التي تطول أياماً كثيرة وأشهراً.

وأخذ العرب القِصَصَ الطِّوال ـ أو المجموعَ الطويلَ من القِصَص ـ عن الفرس وهذبوها وزادوا فيها ثمّ وهبوا ما صنعوا إلى الغرب كلّه. فليس في العالم الغربيّ كلّه ـ بجميع أقطاره ولغاته ـ طفل لا يَعْرِفُ قِصّة من قِصَصِ ألف ليلة وليلة. والقصّاصون الأوروبيّون كلّهم قلّدوا القَصص العربي وغَرَفوا منه. فمسرحيّة شكسبير «أوثلّو العربيّ» ويسمّيها بعضهم «عُطيل» مشهورة . وأشهر منها قصّة كارل ماي الألماني «اجتياز الصّحراء».

انتشـــار الإسلام ديناً وحضـــارة

وإذْ ذكرنا الإسلام فيحسن أن نجعل آثاره موضعَ بحث وجيز. مس المدهش في نطاق التاريخ تلك السرعةُ التي انتشر بها الإسلام. فقبـلَ أن يمرَّ قرنٌ واحد على الهجرة كان الإسلام قد عَمّ العالم القديم المعروف في آسيةَ وإفريقيةَ وبعض أوروبّة ديناً ولُغَةً ودولةً وحضارة. إنّ الامبراطورية الرومانية قد

نشأت في مدى عشـرة قرون ثم سقطت في أثناء عدد قليل من السنين. ثمّ نسيت لغتها وانقرض دينها وضاعت حضارتها. أمّا الإسلام فقد ذهبت دولته السياسية، ولكن الإسلام بقِيَ ديناً ولغةً وحضارة إلى اليوم برُغْمِ كلّ مقاومة قامت في وجهه. وكان العالم الغربـيّ، إذا ذُكِرَ الإسلامُ والطَلاق، يحمل على الإسلام من أجل الطلاق حَمَلاتٍ مُنْكَرة. ولكن نظام الطلاق في الإسلام نظام عاقل صالح ـ معَ أنّه أكره الحلال إلى الله ـ ولقد ساد نظام الطلاق في العالم الغربي حتى وصل إلى إيطالية، إلى روما التي هي كرسيّ البابوية وصاحبة الرأي الذي لا يلين في تحريم الطلاق.

التقليـد من عـلامـات التخلّف

هذه الجولة السريعة في عالم الحضارة بين الشرق والغرب وبين العربية وغيرها ليست كافيةً للكشف عن الصلات الوثيقة بين أمم العالم الذي نحيا فيه، ولكنها كافية في لَفْتِ الأنظار إلى تلك الحقيقة الكبرى في الحياة، وهي أن الرقيّ في الحياة إنما هو الرقيّ الروحيّ لا الرقيّ المادّيّ. إنّ الأمم تستطيع أن تستعير الأسباب المادّيّة، فنحن نركب سيّاراتٍ أفخَمَ من تلك التي يركبها الناس في البلاد التي اخترعت السيّارة والتي تصنع السيّارات. وإنّ نساءنا لَيَلْبَسْنَ ثياباً آنَقَ من الثياب التي تَلْبَسُها نساء أوروبة، مع أنّنا نفتخر باستيراد تلك الثياب من أوروبّة. ونحن نستعرض في أعيادنا أسلحة نشتريها بأموالنا الكثيرة. غير أنّنا لا ننتصر بتلك الأسلحة المادّية التي جعلناها مُلكنا بأموالنا لأنّنا لا نملك السلاح الروحيّ الذي يمكننا من أن نستخدم السلاح المادّيّ استخداماً سليماً مفيداً. والعرب اليوم متأخّرون لا لأنّ الحضارة المادّية مفقودة عندنا، فنحن نَمْلِك من الفنادق الفخمة والسيّارات الغالية والمباني الفاخرة والملابس النفيسة ما لا يَمْلِكُ مثلَه أولئك الذين بَنَوْا لنا تلك الفنادق وباعونا تلك السيّارات وشادوا لنا تلك المباني ونسجوا لنا تلك الثياب

وخاطوها أيضاً. ولكنّ العرب اليوم متأخّرون لأنهم تركوا حضارتهم الروحية. إنّ الأمم لا تنقرض، أي لا يختفي أفرادها ولا يزولون عن وجه الأرض، ولكنّ الأمم تنقرض إذا فقدت حضارتها وذابت في غيرها. ثمّ إنّ الأمم تنقرض بمعنى آخر حينما تنحطّ في سلّم الحياة وتتخلّى عن خصائصها وتَفْقِدُ حضارتها الروحيّة فتصبحُ كُتَلاً بشريّةً لا حَظَّ لها من الحياة الإنسانية إلّا أنها تقلّد البشر الذين هم أقوى منها. ولو أنّ طفلاً جاهلاً فقيراً من أمّة قويّة لَبِسَ ثيابَ رُعاةِ البقر لَلَبِسَ مثلَ تلك الثياب سادةُ الأمم الضعيفة وكبراؤها. وكلّما انحطّ البشر في سُلّم الحضارة أصبحوا أقدرَ على التقليد حتى يضعُفوا ضَعْفاً شديداً ويصبحوا غير قادرين إلّا على تقليد الآخرين. وَيَعْجِزُ هؤلاء المقلّدون عادةً عن تقليد الأقوياء المُفلحين في الأعمال القيّمة النافعة فيقلّدونهم في الأعمال الظاهرة التافهة. نحن لا نقلّد الغرب الحاضر في إطلاق مركبات الفضاء وتصنيع البترول وعمل الآلات الحاسبة وفي الزراعة والصناعة، بل نقلّد الغرب الحاضر في التّافه والمُضرّ من عاداته: في الطعام واللباس والتدخين والسهر في الليالي وما يتبع ذلك كلّه.

العرب والمستقبل

أيّها السادةُ والسيّدات، كان في حديثي شيء قليل من الماضي وشيء كثير من الحاضر. فما شأن المستقبل ؟ لا تظنّوا أنّي سيء الظّن بالمستقبل، فالمستقبل أمامنا نستطيع أن نراه كأنّنا نقرأ في كتاب مفتوح. إنّ للتاريخ مَنْطِقاً لم يختلف على الزمن، إنّ الأمم تعلو وَتَهْبِطُ، وتمرض وتشفى وتموت وتحيا أيضاً. إنها كائن حيّ مثل كلّ فرد من أفرادها. وما يَصْدُق في حياة الفرد الخاصّة يتّفق مثلُه أو قريبٌ منه في الحياة العامّة للأمّة.

وكأنّي بأحدهم يسألُني: لقد فهمت منك ما قُلتَه من أن الأمم تعلو وتَهْبِطُ

وأنها تمرض وتشفى، ولكني لم أتَيَقّنْ معنى قولك: إنّ الأمم تموت وتحيا. إنّ موت الأمم، يا صاحبي، هو موت كبارِ السنّ من أفرادِ الأمّة، وأمّا حياتُها ففي وِلادةِ الأجيال الجديدة منها.

وأين العرب اليوم من هذا المستقبل؟

يكاد العرب يكونون اليوم في أدنى دَرْك من الحياة الحضارية - أو لعلّهم بعدُ لم يصلوا إلى الدَّرْك الأسفل. وأنا أعني بالعرب هؤلاء الذين يعيشون في حضارة أسلافهم العربية لا الذين استأجرتهم الحضارة الغربية. إذا كنت أنا أشعر أنني متأخّر في موكب الحياة الصحيحة - من القوّة والعلم والرقيّ والاستقلال بأمور نفسي وبأداء رسالة نبيلة إلى الإنسانية - ثمّ وجدتّ الذي يسكن إلى قربي بيتَ بيتَ يرقُصُ رقصةً أوروبيّة على أنغام موسيقى زَنْجِيّة تُخْرِجُها آلة يابانية، فليس معنى هذا أن جاريَ أكثرُ تقدّماً منّي. إنّ الأمر على عكس ما يعتقد ذلك الذي يسكن قربي: أنا أرقى منه، ذلك لأنّي أُدْرِكُ ما يُخَبِّئُهُ المستقبلُ وربما احْتَطْتُ لما سيأتي ونفعت بذلك نفسي وبعض قومي، ولكنّه هو غافل عن مثل ذلك كلّه.

حيــاة الأمم وسقوطها

في الأمم اليوم شعوبٌ مرشّحة للزوال عن مسرح الحياة السياسيّة، وأنت تستطيع أن تَعْرِفَ تلك الشعوب بالمِعْيَار الذي وضعه ابنُ خَلْدونٍ ولم يَبْطُلْ صِدْقُه منذ فجر التاريخ إلى اليوم.

إنّ الأمم تخالف الأفراد في أشياءَ منها أن الأمم لا تموت فجأة، ولكنّ علاماتِ الموت قد تظهر عليها في عُنفوان شبابها. لقد بدأ ضعفُ العرب في أيام هارونَ الرشيدِ يومَ وَقَفَ هارونُ الرشيدُ يخاطب غمامةً مارّةً في سماء بغدادَ من غيرِ أن تمطر: «أيّتُها الغمامةُ، اذهبي وأَمْطِري حيثُ شئِت فإنّ

خَراجَك سيأتي إليّ». وكذلك بدأ انحدار فرنسة نحوَ المغيب في أيام لويس الرابعَ عَشَرَ الذي كان لقبه «المَلِكَ الشمس». وما كان بناء قصر فرساي ـ أو مدينة فرساي ـ إلاّ دليلاً من دلائل ذلك الانحدار إلى المغيب. وجاء لويس الخامسَ عشر ولم يكن غبيّاً لمّا قال «وبعديَ الطوفان». لعلّه كان يُدْرِك ما كان ابنُ خَلْدونٍ قد وضعه من قواعدِ زوال الأُسَرِ الحاكمة. يقول ابنُ خَلْدونٍ إذا بدأ انقراض الدولة فإن الحاكمَ القدير قد يستطيع تأخيرَ سقوطِ تلك الدولة ولكنّه لا يستطيع أن يمنعه. ثمّ جاء لويسُ السادسَ عَشَرَ فكان الطوفانُ في فرنسة عارماً، ثم نشأ نظامٌ آخرُ من الحكم. وقانون ابن خَلْدونٍ هو قانون من قوانين الإسلام، فقد قال الله تعالى [٣ : ١٤٠ ، آل عمران]: ﴿ وتلك الأيّامُ نُداولُها بينَ النّاس﴾.

وما أسبابُ سقوط الدول عند ابنِ خَلْدونٍ ؟

أسبابُها البارزةُ أربعة: التّرَفُ ثمّ التّحَلّل من الأخلاق الكريمة ثم العصبية ـ أي تنازع الجماعات في الدولة الواحدة ـ ثم الظلم عاماً وخاصّاً : أي ظلمُ الحاكم للمحكومين وظلم بعض أهل الدولة بعضاً. وإذا كان هناك عدوّ خارجيّ يغتنم الفرصة فإنّ سقوط الدولة يسرع ولكن لا يكون مفاجئاً.

والذي أعتقده أن هذه الأسباب الأربعة واضحة الدلالات ولا مجالَ لشرحها لأنّ شرحها يطول.

العرب اليوم

إنّ العرب كانوا قادةَ مَوْكِبِ الحضارة يوم كانوا يأخذون بأسباب الحضارة ويُعطون الأمم الأخرى من أسباب الحضارة. أمّا اليومَ فإنهم يأخذون ولا يعطون. ثمّ إنهم لا يَعْرِفُون كيف يأخذون ولا كيف يُعْطون: إنهم يأخذون

التافهَ التافِهَ ممّا عند الغَرْب بالثمن الباهظ بعدأن يبيعوا الثمينَ الثمين بالثمن البَخْس. رأيتُ بعيني عربياً يشتري لُعَباً كثيرة ويضعُها في صُندوقٍ كبير لِيُرْسِلَها فيه إلى بلده. كانت تلك اللعب الكثيرة في الصندوق الكبير لا تَزِنُ أَحَدَ عَشَرَ كيلوغراماً ـ أكثرها بالطبع من خيوط اللّدِينة (البلاستيك) ومن نسيج اللدينة ومن صفائحَ من اللدينة، وكلّ اللدائن تصنع من بقايا البترول ـ وكان ثمنُ هذه اللُّعَب نحو ألفي ليرة أو ما يعادل ثمن ستةٍ وستّين طنّاً من البترول الخام (وباعتبار ثمن الطّن الواحد أربعةَ عَشَرَ دولاراً).

إنّ الأمة العربية اليوم محتاجة إلى رجال يفكّرون ـ أقصِد رجالاً في الصفوف الأولى من المجالس السياسية ـ وإلى رجال، في الصفوف الأوْلى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، يَعْرِفون الحساب. وأنا لا أَقْصِدُ حسابَ الجبر والمقابلة ولا حساب التفاضُلِ والتكامُل ولا حساب سُرعة الأجرام الفضائية في مَداراتها المختلفة ولا حسابَ الترداد في حركة الذرّات في العناصر المشعّة، ولكن أقْصِدُ حِسابَ المسائل الأربعِ مَعَ حفظ جدول الضرب. نحن نشتري أَحَدَ عَشَرَ كيلو من الأشياء التافهة بثمن خمسة وسبعين ألفِ لترٍ من البترول الثمين الذي تَنْشَبُ الحروب من أجله في بلاد الناس وفي بلادنا نحن.

..... وأشيـــاء أخرى

بقي هنالك كَلِمات لا أختار اليوم أن تكون واضحات الدلالة ـ لأنّ توضيحها يحتاج إلى صفحات كثيرة. من أجل ذلك اخترت أن أقولها في نحو عشرين بيتاً:

أيُّها العُربُ، أين أين المسيرُ ؟
ضـــلّ فينا الهادي وساء المصير .

قد وَرِثْنا البلادَ وَهْيَ جِنــانٌ
فرآها أبناؤنــا وهـــي بُــورُ.

ـ ١ ـ

اسمعوا قِصّة العُروبة والقو
م فإنّي أُحَدِّثُ الأخبارا.
قد عركت السنينَ أو عركتني
وَفَهِمْتُ الأحــداث والأسـرارا،
وَعَرَفت الأجيال وهْـي تَوَالـى،
وشَهدتّ الشُّخُوصَ وهْي تَوَارى.
ورأيتُ العروشَ تعلو وتَنْها
رُ، وليلاً يلُفّها ونهارا،
والطواغيتَ يَنْصِبون عذابا
للبرايا، والمُصلحين الكبارا.
كلُّهم مرّ في الحياة وخلّى
لِذوي اللُّبّ والحِجى آثارا.
وتَلَفّتُّ، والليالـي تسيرُ،
والمقادير بالبرايا تدورُ،
وعلينا من الحياة دُخانٌ
وجميع البلاد في الأرض نور.

ـ ٢ ـ

قال قومٌ: مجد العروبة فينا
خالدٌ شاده لنا عدنــانُ.

فانتضى آخرونَ سيفاً وصاحوا:
مجدُنا نحن شاده قحطان.
وأتى آخرون، بعدُ فقالوا:
نحن تاريخ مجدنا غسّان.
وطن كان للعروبة فَرْداً
فَهُوَ اليومَ للأسى أوطان.
وهوًى كان في الجميع جميعاً
فتولّى تَشْتيتَه الخِذلان.
لا تَسَلْني : ما حالُ قومي ؟ فهذي
حالُهم. أنّ نجمَهم حَيْران.
واستوى في السماء نجمٌ منيــرُ
مستقيمٌ في سيره لا يحور.
أترى يُبْصِرُ الهُدى عُميانٌ ؟
أمْ ترى يُدْرِكُ المعالي صغير ؟

— ٣ —

كلَّ يومٍ حزبٌ جديد يُنَادي
بِشِعارٍ ، والقولُ غيرُ مُبينِ.
وفِعالُ الأحــزاب مختلفاتٌ ؛
وعِداء مُستحكِمٌ كلَّ حين.
مرّةً تُبْصِر الزعيم على الغـر
ب مُطِلّاً، ومرّة في الصين.
والرعايا تُساقُ مثلَ الرعايا

من مُروجِ الكلام للسِّكِّينِ.
ليس فينا مفكِّرٌ يبتغي الخيـ
ـرَ ولا مُشفقٌ على مسكين.
إنَّ قوماً قد خرّبوا كلَّ دُنْياً
لن ترى فيهمو صلاحَ الدين.
أيُّها العُربُ، أين أين المسيرُ ؟
ضلّ فينا الهادي وساء المصيرُ.
قد وَرِثْنا البلاد وهي جِنانٌ
فــرآها أبناؤنا وهـــي بُورُ.

٨

الــــدواء القديم

مرّ على البلاد الإسلامية أزمنةٌ كانت تلك البلاد تُعاني في أثنائها ما نُعانيه نحن اليوم من الضَعْف والتخلّف والخُضوع والذِلّة أيضاً. ففي القرن الخامس للهجرة (٤٠١ - ٥٠٠ هـ) ، في مَدى القرن الحادي عَشَرَ للميلاد، من عام ١٠١٠ إلى عام ١١٠٦ م كان العالمُ الإسلاميّ مُمزّقاً: دويلات المشرق (من العراق إلى أقاصي بلاد التركستان) بالمنازعاتِ بينَ الأمراء والحكّام ثمّ دويلات المَغْرب (في الشّمال الإفريقي وفي الأندلس) بالتجزُّؤ والتشتّتِ، كنّا يومذاك في عصر ملوكِ الطوائف على جانِبَيْ مضيقِ جبل طارق في العُدْوة الأوروبيّة (في الأندلُس) وفي العُدوة الإفريقية (في الأقطار المغربية). أمّا وسَطُ العالمِ الإسلاميّ فيكفي أن أقول فيه إنه كان يشهَدُ الهَجْمةَ الصليبية التي نشاهد نحنُ اليومَ في كلِّ قطرٍ من أقطارنا أشدَّ منها. إنّ **الحروبَ الصليبية التي شَنّتْها البابويّة بالتعاوُنِ والتنسيق مَعَ دُوَلِ أوروبّة يومذاك لا تزالُ مُستمرّةً منذ ذلك الحين، مُنذُ وَطِىءَ الجنديُّ الصليبيّ الأوّلُ، سَنَةَ ٤٩١ للهجرة (١٠٩٧ للميلاد)ـ منذُ ألفِ سَنَةٍ أو تَقِلُّ قليلاًـ ولكنْ مَعَ فارقٍ واحدٍ**: كانتِ القوّةُ المادّية للمُسلمين وللصليبيّين مُتقاربةً فكانت الحرب بَيْنَنَا وبينَ خصومنا سِجالاً (يوماً لنا ويوماً علينا). أمّا اليوم فإنّ الفرق (في القوّة المادّيّة بيننا وبين خُصومنا) عظيمٌ جِدًّا (هم يَمْلِكونَ من القوّةِ العَدديّة في البشر ومن الطاقة المادّيَة في الأدوات والآلات ومن القُدرة الفِكرية في التنظيم والتخطيط كُلِّ شيءٍ. ونحن لنا مِثلَهم قوةٌ عدديةٌ من البشر وطاقةٌ مادّية من الثروة الطبيعية والنَقْدية وقدرةٌ فِكرية جبّارةٌ في شُعوبِنا المختلفة، ولكنّنا لا نَمْلِكُ من التنظيمِ والتخطيط شيئاً) .

أمّا إذا نحن نَظَرنا إلى أحوالنا من الجانب الآخَرِ وجدنا لدينا من الطاقات ما يُمَكّنُ كلَّ أمّةٍ من أن تَرْقى ومن أن تَتَغَلّبَ على جميع خصومها:

* العالم الإسلامي:

- كَثْرةٌ في عددِ الناس،
- سَعَةٌ في الأرض،
- بلادٌ وُسْطى بين الشرق والغَرْب والشَّمال والجَنوب،
- ثروةٌ ماديةٌ هائلةٌ من البترول وسائرِ المعادن الضرورية في الصِناعة.

هذا بالإضافة إلى الموادِّ الأوّلية التي تُنْبِتُها أرضُنا في جميعِ فصولِ العام.

- **ثمّ هنالك الثروةُ الروحيّة العظيمة**: لِسانٌ عربيٌّ مُبينٌ جامعٌ يفهَمُه كثيراً أو قليلاً كُلّ شعب من الشعوب الإسلامية في كلِّ بُقعةٍ من بِقاع الأرض، ودينٌ شاملٌ يُنظّم الحياةَ في جميع جوانبها.

ولكنّنا نَحار في وُقوفِنا أمام مُشكلةٍ **نحسَبُها مُعقّدةً**: هي المُوازنةُ بين الفَنّ العِلمي (التكنولوجيا) والثقافةِ الروحية. إنّ خطأنا في هذه الحَيْرة هو خطأ ذلك الشخصِ الذي يريدُ أن يُقِيمَ بناءً فيجمَع له كلَّ ما يستطيعُ جمْعَه من الحِجارة والحديد والخشب والطين والماء ثمّ يأتي بالماهرين من المهندسينَ والبارعينَ من المزخرفينَ والقادرين من البنّائين، وهُوَ، بَعْدُ، لا يَعْرِفُ لماذا يريدُ أن يَبْنِيَ هذا البناء: ألِلسُّكنى؟ أم للتجارة؟ أم للتعليم؟ أم للاستشفاء؟ أم للهو؟

علينا أوّلاً أن نَحْزِمَ أمرَنا فنَعْرِفَ ما الذي نريده

* نَبْني قصراً في الصحراء. - لأيّةِ غايةٍ؟
* نُودِعُ في مصارفِ العالم ملايينَ الملايينِ. - في أي سبيلٍ؟
* نُرْسِلُ أبناءنا إلى أشْهرِ الجامعات في العالم. - فما نختارُ لهم ممّا

يجب أن يتعلّموه حتّى إذا رَجَعوا إلى بُلدانِهِمُ استطاعوا أن ينفعوا بلدانَهُمْ بعلمهم هذا ؟

* نَشْتري من خُصومنا .... ـ لا، لا ضرورةَ لذِكْر الأمثلةِ الباقية (إنّ الأسئلةَ على تلك الأمثلةِ معروفةٌ. والأجوبةُ على تلك الأسئلة معروفةٌ أيضاً) .

الدواء القديم وأجزاؤه:

إنّ كلّ دواء يحتاجُ المريضُ إلى أن يتناوَلَه يتألفُ من أجزاءٍ مختلفةِ الأنواعِ مختلفة المقادير. وكلُ دواءٍ اجتماعيٍّ أدّى في التاريخ إلى نَهْضةٍ حضاريةٍ تآلفَ من الأجزاء التالية بالمقادير المذكورة:

ـ جهودٌ كثيرةٌ، ولكنّ هذه الجهودَ الكثيرة لا فائدةَ منها إذا لم تكن مُنظَّمةً.

ـ تنظيمُ الجهودِ، ولكنْ لا سبيلَ الى تنظيمِ الجُهودِ إلاّ بالعلم.

ـ العلمُ، ولكنْ لا فائدةَ للعلم إذا لم يكن مُحَصَّناً بالأخلاق. إنّ السكينَ الواحدَ يكون في يدِ الطبيبِ فيَشْفي به المريضَ. فإذا انتقلَ هذا السكينُ **نفسُه إلى يدِ الجاهلِ** أصبحَ أداة للشّرِّ وللأذى.

تلك هي الأجزاء التي يتألّفُ منها كلُّ دواء نافعٍ. وقد كان الإسلام قد جاء الى العرب ثمّ إلى الناسِ جميعاً بالدواء الأعظم. بذلك الدواءِ نَهَضَ المسلمون من الضَعْفِ إلى القوّة، ومن الذِلّة إلى العِزّة، ومن الجَهْل إلى العلم، ومن الفقر إلى الغِنى ، ومن التَشَتُّتِ إلى الوَحْدة، ومن الخَيْبة إلى النَجاح ثمّ فَتَحوا الأرض فتحاً رحيماً وأقاموا حضارةً عادلةً ونشروا ثقافةً نافعة. فعلينا أن نعودَ إلى ذلك الدواءِ القديم الذي شُفِينا به مرّةً بعدَ مرّةٍ. فهو قادرٌ على أن يَشْفِينَا الآنَ أيضاً.

أمّا أولئك الذين يُصرون على تعاطي أدْوِيةٍ جديدةٍ (غريبةٍ أو قريبةٍ)، فأنا لا أقولُ لهم: هذه أدويةٌ رَديئةٌ. . . .

ولا قُلْتُ لهم : هذه أدويةٌ صالحةٌ . . . .

ولكنّني قُلْتُ لهم، ولا أزالُ أقولُ لهم: إنّ هذه الأدويةَ لم تَزِدْ هذا المريضَ إلاّ مَرَضاً.

وتَسْألني عن أمْثِلةٍ من التاريخِ بعدَ ظهورِ الإسلام.

هنالك أمثلةٌ كثيرةٌ سأكتفي منها بذِكْرِ ثلاثةِ أسماء:

* محمودُ الغَزْنَويّ في مَشْرِقِ العالم الإسلامي،
* يوسفُ بن تاشِفِينَ في المَغْرب من العالم الإسلامي،

ثم صلاحُ الدين في وَسَط العالم الإسلامي.

ثمّ أظُنُّ أنّكَ تُريد أن تسألَني عمّا فَعَلَ هؤلاءِ خاصّةً.

إنّ الجوابَ على سؤالِكَ يحتاجُ إلى كتابٍ جديد.

الفهـــرس الهجائـــي

للأعلام ولعدد من المدارك

ج، ح، خ

د، ر، ز.

س، ش، ص، ط، ض، ط،

ع، غ

ترجمة موجزة:

ــ وُلِدَ عمر عبد الله فرّوخ في بيروت في ٨ أيار (مايو) ١٩٠٦. تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت برتبة بكالوريوس علوم عام ١٩٢٨م، دَرَسَ في جامعات برلين وليبزغ وأرلنجن (دكتوراه في الفلسفة ١٩٣٧)، اتّخذ التدريس عملاً: في مدرسة النجاح في نابلس (فلسطين) ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩. في مدارس المقاصد (منذ ١٩٢٩)، أستاذ زائر في دار المعلّمين العالية في بغداد ١٩٤٠ ـ ١٩٤١. في الجامعة السورية ١٩٥١ ـ ١٩٦٠، أستاذ محاضر في جامعة بيروت العربية (منذ ١٩٦١). في الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ ثمّ منذ ١٩٧٨، عضو المؤتمر الثقافي الأول (بيت مري - لبنان) سنة ١٩٤٦. عضو نقابة المعلّمين (منذ ١٩٤٦). عضو اللجنة الوطنيّة ١٩٤٨. عضو الوفد اللبناني إلى الدورة الثالثة للأونسكو (بيروت ١٩٤٨)، حضر عدداً كبيراً من المؤتمرات، عضو المجلس الإسلامي (١٩٥٤ ـ ١٩٦٥)، عضو جمعية أصدقاء الكتاب (١٩٦٠ - ١٩٦٨)، عضو جمعية البحوث الإسلامية (بومباي) ١٩٤٨، عضو مجمع اللغة العربية (المجمع العلمي العربي) بدمشق ١٩٤٨. وفي القاهرة ١٩٦٠، عضو جمعية البرّ والإحسان وأحد ممثّليها في مجلس الإدارة في جامعة بيروت العربية. رئيس جمعيّة البرّ والإحسان ١٩٧٧، جائزة رئيس الجمهورية: تمنحها جمعيّة أصدقاء الكتاب (بيروت ـ لبنان) على مجموع آثار مؤلّف لبناني تميّزت بالجودة وصدرت باللغة العربية، حائز على وسام المعارف من الدرجة الأولى (لبنان ١٩٤٨. وسام نجم باكستان من رتبة قائد أعظم ١٩٦٨. وسام الأرز الوطني (لبنان) من رتبة فارس

١٩٧١ . وسام الاستحقاق (موريتانية) من رتبة ضابط ١٩٧٧ . رئيس جمعية البرّ والإحسان. عضو المجمع العلمي العراقي.

ـ تزوّج ١٩٤٠ . عقيلته آمنة حلمي (ولدت ١٩١٨). أولادهما: أسامة (ولد ١٩٤٤)ـ مروان (ولد ١٩٤٦) ـ مازن (ولد ١٩٤٨) ـ لينة (ولدت ١٩٥٢)ـ لميس (ولدت ١٩٥٦).

ـ عنوانه : ص . ب ٩٤١ ـ ١١، بيـــروت.

كتب ودراسات للمؤلف:

تاريخ العلوم عند العرب.

تاريخ الفكر العربي

تاريخ الأدب العربي (صدر منه ثلاثة أجزاء). ـ الرابع في الطبع.

عبقرية العرب في العلم والفلسفة.

التبشير والاستعمار في البلاد العربية.

الأسرة في الشرع الإسلامي.

تاريخ الجاهلية.

شاعران معاصران (الشابيّ وإبراهيم طوقان).

الشابيّ شاعر الحبّ والحياة.

القوميّة الفصحى.

وثبة المغرب.

العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسّط.

تجديد التاريخ : في تعليله وتدوينه..

العرب والإسلام في الحوض الغربي.... الخ

العرب في حضارتهم وثقافتهم.

تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية.

باكستان دولة ستعيش.

العرب والفلسفة اليونانية.

صفحات من حياة الكندي.

الفارابيّان (الفارابي وابن سينا).

ابن باجّة والفلسفة المغربية.

ابن طُفيل وقِصّة حيّ بن يقظان.

كلمة في ابن خلدون ومقدّمته.

أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوروبيّة.

التصوّف في الإسلام.

أبـــو تمّـــام.

أبـــو فِراس.

خمسة شعراء جاهليّون.

كلمة في نهج البلاغة.

الحجّاج بن يوسف.

عمر بن أبي ربيعة.

شعراء البلاط الأمويّ.

عبد الله بن المقفّع.

بشّار بن بـــرد.

أبو نوّاس.

ابن الـــروميّ.

حكيـــم المعرّة.

كلمة في أحمد شوقي.

نحو التعاون العربي.

تاريخ سورية ولبنان المصوّر.

دفاعاً عن العلم.

دفاعاً عن الوطن.

الأناشيد المصوّرة.

سفينة الحيوانات.

الأسئلة الثلاثة.

كتب منقولة عن الإنكليزية:

الإسلام على مفترق الطرق.

الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط.

الطريق إلى النجوم.

أصدقاء لا سادة (ترجمة ذاتية لمحمّد أيوب خان رئيس دولة باكستان).

الإسلام منهج حياة.

كتب في غير اللغة العربية:

Das Bild des Frühislam in der arabische Dichtung.
Ibn Taimiyyah on Public and private law.
Qur'anic Arabic (Arabic for non — Arabs).
L'arabe coranique (cours d'arabe pour les non — arabes).

« ولا يدخل في هذه القائمة سلاسل التدريس في المرحلة الابتدائية وفي المرحلة الثانوية ».